سورة الفيل

خمس آيات مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾

روي أن أبرهة بن الصباح الأشرم مَلِك اليمن من قِبل أصحمة النجاشي - بنى كنيسة بصنعاء وسماها القليس، وأراد أن يصرف إليها الحاج، فخرج من بني كنانة رجل وتغوط فيها ليلاً فأغضبه ذلك. وقيل: أججت رفقة من العرب نارًا، فحملتها الريح فأحرقتها، فحلف ليهدمن الكعبة، فخرج بالحبشة ومعه فيل اسمه محمود وكان قويًا عظيمًا، وثمانية أخرى، وقيل: اثنا عشر، وقيل: ألف، فلما بلغ قريبًا من مكة، خرج إليه عبد المطلب وعرض عليه ثلث أموال تهامة ليرجع فأبى وعبأ جيشه، وقدم الفيل، فكانوا كلما وجهوه إلى جهة الحرم برك ولم يبرح، وإذا وجهوه إلى جهة اليمن أو إلى سائر الجهات هرول، ثم إن أبرهة أخذ لعبد المطلب مائتي بعير، فخرج إليهم فيها فعظم في عين أبرهة وكان رجلاً جسيمًا وسيمًا، وقيل: هذا سيد قريش، وصاحب عير مكة. فلما ذكر حاجته، قال: سقطتَ من عيني جئتُ لأهدم البيت الذي هو دينك ودين آبائك فألهاك عنه ذود أخذ لك؟! فقال: أنا رب الإبل وللبيت رب سيمنعك عنه. ثم رجع وأتى البيت وأخذ بحلقته وهو يقول:

لا هُمَّ إنَّ الْمَرْءَ يَمْـ ... ـنَعُ حِلَّهُ فَامْنَعْ حَلاَلَكْ[1]
وانصر على آل الصلـ ... ـيب وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ آلَكْ
لاَ يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... وَمِحَالُهُمْ عدوًا محالك
إن كنت تاركهم وكعـ ... ـبتنا فَأْمُرْ مَا بَدَا لَكْ

ويقول:

يَا رَبِّ لاَ أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَا ... يَا رَبِّ فَامْنَعْ عَنْهُمْ حِمَاكَا

(١) هذا البيت قاله عبد المطلب بن هاشم وهو جد النبي ﷺ لأبيه، وهو عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، أبو الحارث. ١٢٧- ٤٥ق. هـ/ ٥٠٠- ٥٧٩م، زعيم قريش في الجاهلية، وأحد سادات العرب ومقدميهم، مولده في المدينة ومنشأة بمكة، كان عاقلاً، ذا أناة ونجدة، فصيح اللسان، حاضر القلب، أحبه قومه ورفعوا من شأنه، فكانت له السقاية والرفادة. قال (سيديو) في خلاصة تاريخ العرب: (مارس الحكومة العظمى بمكة من سنة ٥٢٠ إلى سنة ٥٧٩م، وخلّص وطنه من غارة الحبشة) وهو جد رسول الله ﷺ قيل: اسمه شيبة و(عبد المطلب) لقب غلب عليه، وقيل: هو أول من خضب بالسواد من العرب، كان أبيض مديد القامة، مات بمكة عن نحو ثمانين عامًا أو أكثر.

فالتفت وهو يدعو، فإذا هو بطير من نحو اليمن، فقال: والله إنها لطير غريبة ما هي بنجدية ولا تهامية!! وكان مع كل طائر حجر في منقاره وحجران في رجليه أكبر من العدسة وأصغر من الحمصة، وعن ابن عباس أنه رأى منها عند أم هانئ نحو قفيز مخططة بحمرة كالجزع الظفاري، فكان الحجر يقع على رأس الرجل فيخرج من دبره، وعلى كل حجر اسم من يقع عليه، فهلكوا في كل طريق ومنهل، ودوى أبرهة فتساقطت أنامله، وما مات حتى انصدع صدره عن قلبه، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يحلق فوقه، حتى بلغ النجاشي فقص عليه القصة، فلما أتمها وقع عليه الحجر وخر ميتًا بين يديه. وعن عائشة قالت: رأيت قائد الفيل وسائسه أعميين مقعدين يستطعمان، **ثم في الآية سؤالات:**

الأول: لمَ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ مع أن هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل؟ **الجواب:** المراد من الرؤية العلم والتذكير، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر، فكان العلم الحاصل به ضروريًّا مساويًا في القوة والجلاء للرؤية، ولهذا السبب قال لغيره على سبيل الذم: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١] لا يقال: فلمَ قال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٠٦] لأنا نقول: الفرق أن ما لا يتصور إدراكه لا يستعمل فيه إلا العلم لكونه قادرًا، وأما الذي يتصور إدراكه كفرار الفيل، فإنه يجوز أن يستعمل فيه الرؤية.

السؤال الثاني: لمَ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ ولم يقل: ألم تر ما فعل ربك؟ **الجواب:** لأن الأشياء لها ذوات، ولها كيفيات باعتبارها يدل على مداومتها، وهذه الكيفية هي التي يسميها المتكلمون وجه الدليل، واستحقاق المدح إنما يحصل برؤية هذه الكيفيات لا برؤية الذوات ولهذا قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ [ق: ٦] ولا شك أن هذه الواقعة كانت دالة على قدرة الصانع وعلمه وحكمته، وكانت دالة على شرف محمد ﷺ، وذلك لأن مذهبنا أنه يجوز تقديم المعجزات على زمان البعثة تأسيسًا لنبوتهم وإرهاصًا لها، ولذلك قالوا: كانت الغمامة تظله، وعند المعتزلة أن ذلك لا يجوز، فلا جرم زعموا أنه لا بد وأن يقال: كان في ذلك الزمان نبي (أو خطيب) كخالد بن سنان أو قس بن ساعدة. ثم قالوا: ولا يجب أن يشتهر وجودهما، ويبلغ إلى حد التواتر؛ لاحتمال أنه كان مبعوثًا إلى جمع قليلين، فلا جرم لم يشتهر خبره. واعلم أن قصة الفيل واقعة على الملحدين جدًّا؛ لأنهم ذكروا في الزلازل والرياح والصواعق وسائر الأشياء التي عذب الله تعالى بها الأمم - أعذارًا ضعيفة، أما هذه الواقعة فلا تجري فيها تلك الأعذار؛ لأنها ليس في شيء من الطبائع والحيل أن تُقبل طير معها حجارة، فتقصد قومًا دون قوم فتقتلهم، ولا يمكن أن يقال: إنه كسائر الأحاديث الضعيفة لأنه لم يكن بين عام الفيل ومبعث الرسول إلا نيف وأربعون سنة، ويوم تلا الرسول هذه السورة كان قد بقي بمكة جمع شاهدوا تلك الواقعة، ولو كان النقل ضعيفًا لشافهوه بالتكذيب، فلما لم يكن كذلك علمنا أنه لا سبب للطعن فيه.

السؤال الثالث: لمَ قال: ﴿فَعَلَ﴾ ولم يقل: جعل ولا خلق ولا عمل؟ **الجواب:** لأن (خَلَق) يستعمل لابتداء الفعل، و(جَعَل) للكيفيات، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] و(عَمِل) بعد الطلب و(فَعَل) عام فكان أَوْلى لأنه تعالى خلق الطيور وجعل طبع الفيل على خلاف ما كانت عليه، وسألوه أن يحفظ البيت، ولعله كان فيهم من يستحق الإجابة، فلو ذكر الألفاظ الثلاثة لطال الكلام فذكر لفظًا يشمل الكل.

السؤال الرابع: لمَ قال: ﴿رَبُّكَ﴾، ولم يقل: الرب؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** كأنه تعالى قال: إنهم لما شاهدوا هذا الانتقام ثم لم يتركوا عبادة الأوثان، وأنت يا محمد ما شاهدته ثم اعترفت بالشكر والطاعة، فكأنك أنت الذي رأيت ذلك الانتقام، فلا جرم تبرأت عنهم واخترتك من الكل، فأقول: ربك، أي أنا لك ولستُ لهم بل عليهم. **وثانيها:** كأنه تعالى قال: إنما فعلت بأصحاب الفيل ذلك تعظيمًا لك وتشريفًا لمَقْدِمك، فأنا كنت مربيًا لك قبل قومك، فكيف أترك تربيتك بعد ظهورك؟ ففيه بشارة له عليه السلام بأنه سيظفر.

السؤال الخامس: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ مذكور في معرض التعجب وهذه الأشياء بالنسبة إلى قدرة الله تعالى ليست عجيبة، فما السبب لهذا التعجب؟ **الجواب من وجوه: أحدها:** أن الكعبة تبع لمحمد ﷺ، وذلك لأن العلم يؤدى بدون المسجد أما لا مسجد بدون العالم فالعالم هو الدر والمسجد هو الصدف، ثم الرسول الذي هو الدر همزه الوليد ولمزه حتى ضاق قلبه، فكأنه تعالى يقول: إن الملك العظيم لما طعن في المسجد هزمته وأفنيته، فمن طعن فيك وأنت المقصود من الكل ألا أفنيه وأعدمه! إن هذا لعجيب. **وثانيها:** أن الكعبة قبلة صلاتك وقلبك قبلة معرفتك، ثم أنا حفظت قبلة عملك عن الأعداء، أفلا تسعى في حفظ قبلة دينك عن الآثام والمعاصي؟!

السؤال السادس: لمَ قال: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ ولم يقل: أرباب الفيل أو ملاك الفيل؟ **الجواب:** لأن الصاحب يكون من الجنس، فقوله: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا من جنس الفيل في البهيمية وعدم الفهم والعقل، بل فيه دقيقة، وهي: أنه إذا حصلت المصاحبة بين شخصين، فيقال للأدون: إنه صاحب الأعلى، ولا يقال للأعلى: إنه صاحب الأدون، ولذلك يقال لمن صحب الرسول عليه السلام: إنهم الصحابة، فقوله: ﴿بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ﴾ يدل على أن أولئك الأقوام كانوا أقل حالاً وأدون منزلة من الفيل، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] ومما يؤكد ذلك أنهم كلما وجهوا الفيل إلى جهة الكعبة كان يتحول عنه ويفر عنه، كأنه كان يقول: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، عزمي حميد فلا أتركه. وهم ما كانوا يتركون تلك العزيمة الردية، فدل ذلك على أن الفيل كان أحسن حالاً منهم.

السؤال السابع: أليس أن كفار قريش كانوا ملأوا الكعبة من الأوثان من قديم الدهر، ولا شك أن ذلك كان أقبح من تخريب جدران الكعبة، فلمَ سلط الله العذاب على من قصد التخريب، ولم

يسلط العذاب على من ملأها من الأوثان؟ **والجواب:** لأن وضع الأوثان فيها تعَدٍّ على حق الله تعالى، وتخريبها تعَدٍّ على حق الخلق، ونظيره قاطع الطريق، والباغي والقاتل يقتلون مع أنهم مسلمون، ولا يقتل الشيخ الكبير والأعمى وصاحب الصومعة والمرأة، وإن كانوا كفارًا؛ لأنه لا يتعدى ضررهم إلى الخلق.

السؤال الثامن: كيف القول في إعراب هذه الآية؟ **الجواب:** قال الزجاج: ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بفعل لا بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ لأن كيف من حروف الاستفهام.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝﴾

واعلم أنه تعالى ذكر ما فعل بهم فقال: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: اعلم أن الكيد هو إرادة مضرة بالغير على الخفية، **إن قيل:** فلمَ سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا، فإنه كان يصرح أنه يهدم البيت؟ **قلنا:** نعم، لكن الذي كان في قلبه شر مما أظهر؛ لأنه كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريد صرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: إضافة الكيد إليهم دليل على أنه تعالى لا يرضى بالقبيح، إذ لو رضي لأضافه إلى ذاته، كقوله: الصوم لي. **والجواب:** أنه ثبت في علم النحو أنه يكفي في حسن الإضافة أدنى سبب، فلمَ لا يكفي في حسن هذه الإضافة وقوعه مطابقًا لإرادتهم واختيارهم؟

المسألة الثالثة: ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي في تضييع وإبطال، يقال: ضلل كيده، إذا جعله ضالاً ضائعًا، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ﴾ [الرعد: ١٤] وقيل لامرئ القيس الملك الضليل، لأنه ضلل مُلك أبيه، أي ضيعه، بمعنى أنهم كادوا البيت أولاً ببناء القليس وأرادوا أن يفتتحوا أمره بصرف وجوه الحاج إليه، فضلل كيدهم بإيقاع الحريق فيه، ثم كادوه ثانيًا بإرادة هدمه فضلل بإرسال الطير عليهم، ومعنى حرف (في)الظرف كما يقال: سَعْي فلان في ضلال، أي سعيهم كان قد ظهر لكل عاقل أنه كان ضلال وخطأ.

ثم قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾، **وفيه سؤالات:**

السؤال الأول: لمَ قال: ﴿طَيْرًا﴾ على التنكير؟ **والجواب:** إما للتحقير فإنه مهما كان أحقر كان صنع الله أعجب وأكبر، أو للتفخيم كأنه يقول: طيرًا وأي طير ترمي بحجارة صغيرة فلا تخطئ المقتل.

السؤال الثاني: ما الأبابيل؟ **الجواب:** أما أهل اللغة قال أبو عبيدة: أبابيل جماعة في تفرقة، يقال: جاءت الخيل أبابيل أبابيل، من ههنا وههنا. وهل لهذه اللفظة واحد أم لا؟ **فيه قولان:**

الأول: -وهو قول الأخفش والفراء- أنه لا واحد لها وهو مثل الشماطيط والعباديد، لا وحد لها.

والثاني: أنه له واحد، ثم على هذا القول ذكروا ثلاثة أوجه: **أحدها:** زعم أبو جعفر الرؤاسي وكان ثقة مأمونًا أنه سمع واحدها إبالة، وفي أمثالهم: (ضِغث على إبالة) وهي الحزمة الكبيرة سميت الجماعة من الطير في نظامها بالإبالة. **وثانيها:** قال الكسائي: كنت أسمع النحويين يقولون: إبول وأبابيل كعجول وعجاجيل وثالثها: قال الفراء: ولو قال قائل: واحد الأبابيل إيبالة كان صوابًا، كما قال: دينار ودنانير.

السؤال الثالث: ما صفة تلك الطير؟ **الجواب:** روى ابن سيرين عن ابن عباس قال: كانت طيرًا لها خراطيم كخراطيم الفيل وأكف كأكف الكلاب. وروى عطاء عنه قال: طير سود جاءت من قبل البحر فوجًا فوجًا، ولعل السبب أنها أُرسلت إلى قوم كان في صورتهم سواد اللون وفي سرهم سواد الكفر والمعصية. وعن سعيد بن جبير أنها بيض صغار. ولعل السبب أن ظلمة الكفر انهزمت بها، والبياض ضد السواد، وقيل: كانت خضرًا ولها رءوس مثل رءوس السباع. وأقول: إنها لما كانت أفواجًا، فلعل كل فوج منها كان على شكل آخر، فكل أحد وصف ما رأى، وقيل: كانت بلقاء كالخطاطيف.

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو حيوة: (يَرْمِيهِمْ) أي الله، أو الطير لأنه اسم جمع مذكر، وإنما يؤنث على المعنى.

المسألة الثانية: ذكروا في كيفية الرمي وجوهًا: **أحدها:** قال مقاتل: كان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار، واحد في منقاره واثنان في رجليه، يقتل كل واحد رجلاً، مكتوب على كل حجر اسم صاحبه، ما وقع منها حجر على موضع إلا خرج من الجانب الآخر، وإن وقع على رأسه خرج من دبره. **وثانيها:** روى عكرمة عن ابن عباس قال: لما أرسل الله الحجارة على أصحاب الفيل لم يقع حجر على أحد منهم إلا نفط جلده وثار به الجدري. وهو قول سعيد بن جبير، وكانت تلك الأحجار أصغرها مثل العدسة، وأكبرها مثل الحمصة.

واعلم أن من الناس من أنكر ذلك، وقال: لو جوزنا أن يكون في الحجارة التي تكون مثل العدسة من الثقل ما يقوى به على أن ينفذ من رأس الإنسان ويخرج من أسفله، لجوزنا أن يكون الجبل العظيم خاليًا عن الثقل وأن يكون في وزن التبنة، وذلك يرفع الأمان عن المشاهدات، فإنه متى جاز ذلك فليجز أن يكون بحضرتنا شموس وأقمار ولا نراها، وأن يحصل الإدراك في عين الضرير حتى يكون هو بالمشرق ويرى بقعة في الأندلس، وكل ذلك محال. واعلم أن ذلك جائز على مذهبنا إلا أن العادة جارية بأنها لا تقع.

المسألة الثالثة: ذكروا في السجيل وجوهًا: **أحدها:** أن السجيل كأنه علم للديوان الذي كُتب

فيه عذاب الكفار، كما أن سجينًا علم لديوان أعمالهم، كأنه قيل: بحجارة من جملة العذاب المكتوب المدون، واشتقاقه من الإسجال، وهو الإرسال، ومنه السجل: الدلو المملوء ماء، وإنما سمي ذلك الكتاب بهذا الاسم لأنه كُتب فيه العذاب، والعذاب موصوف بالإرسال لقوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ [الفيل: ٣] وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ [الأعراف: ١٣٣] فقوله: ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ أي مما كتبه الله في ذلك الكتاب. **وثانيها:** قال ابن عباس: سجيل معناه سنك وكل، يعني بعضه حجر وبعضه طين. **وثالثها:** قال أبو عبيدة: السجيل الشديد. **ورابعها:** السجيل اسم لسماء الدنيا. **وخامسها:** السجيل حجارة من جهنم، فإن سجيل اسم من أسماء جهنم فأبدلت النون باللام.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير العصف وجوهًا ذكرناها في قوله: ﴿وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ﴾ [الرحمن: ١٢] وذكروا ههنا وجوهًا: **أحدها:** أنه ورق الزرع الذي يبقى في الأرض بعد الحصاد وتعصفه الرياح فتأكله المواشي. **وثانيها:** قال أبو مسلم: العصف: التبن لقوله: ﴿ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٢] لأنه تعصف به الريح عند الذر فتفرقه عن الحب، وهو إذا كان مأكولاً فقد بطل ولا رجعة له ولا منعة فيه وثالثها: قال الفراء: هو أطراف الزرع قبل أن يدرك السنبل. **ورابعها:** هو الحب الذي أُكل لبه وبقي قشره.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير المأكول وجوهًا: **أحدها:** أنه الذي أُكل، وعلى هذا الوجه ففيه احتمالان: **أحدهما:** أن يكون المعنى كزرع وتبن قد أكلته الدواب، ثم ألقته روثًا، ثم يجف وتتفرق أجزاؤه، شبه تقطع أوصالهم بتفرق أجزاء الروث، إلا أن العبارة عنه جاءت على ما عليه آداب القرآن، كقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] وهو قول مقاتل وقتادة وعطاء عن ابن عباس. **والاحتمال الثاني على هذا الوجه:** أن يكون التشبيه واقعًا بورق الزرع إذا وقع فيه الأكال، وهو أن يأكله الدود.

الوجه الثاني في تفسير قوله: ﴿مَّأْكُولٍ﴾ هو أنه جعلهم كزرع قد أُكل حبه وبقي تبنه، وعلى هذا التقدير يكون المعنى: كعصف مأكول الحب، كما يقال: فلان حسن، أي حسن الوجه، فأجرى مأكول على العصف من أجل أنه أُكل حبه لأن هذا المعنى معلوم، وهذا قول الحسن.

الوجه الثالث في التفسير: أن يكون معنى مأكول أنه مما يؤكل، يعني تأكله الدواب، يقال لكل شيء يصلح للأكل: هو مأكول. والمعنى جعلهم كتبن تأكله الدواب. وهو قول عكرمة والضحاك.

المسألة الثالثة: قال بعضهم: إن الحَجاج خرب الكعبة، ولم يحدث شيء من ذلك، فدل

على أن قصة الفيل ما كانت على هذا الوجه وإن كانت هكذا إلا أن السبب لتلك الواقعة أمر آخر سوى تعظيم الكعبة. **والجواب**: أنا بينا أن ذلك وقع إرهاصًا لأمر محمد ﷺ، والإرهاص إنما يحتاج إليه قبل قدومه، أما بعد قدومه وتأكد نبوته بالدلائل القاطعة فلا حاجة إلى شيء من ذلك.

والله سبحانه وتعالى أعلم وأحكم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

تفسير سورة «الفيل»

وهي مكية بإجماع[1]. وهي خمس آيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ①﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي: أَلَم تخبَرْ. وقيل: أَلَم تَعْلَم. وقال ابن عباس: أَلَمْ تسمع؟ واللفظُ استفهامٌ، والمعنى تقرير. والخطابُ للنبيِّ ﷺ ولكنَّه عامٌّ، أي: ألم تَرَوْا ما فعلتُ بأَصْحَابِ الفيل، أي: قد رأيتُم ذلك، وعرفتُم موضعَ مِنَّتي عليكم، فما لكم لا تؤمنون؟

و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ «فَعَلَ رَبُّك» لا بـ «ألم تر» [لأن] «كيف» من معنى الاستفهام[2].

الثانية: قوله تعالى: ﴿بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الفيلُ معروفٌ، والجمعُ أفيالٌ وفُيول، وفِيَلَة. قال ابن السكيت: ولا تَقُلْ أَفْيِلة. وصاحبُه فيَّال. قال سيبويه: يجوزُ أن يكون أصلُ فِيل فُعْلاً، فكُسِر من أَجْلِ الياء، كما قالوا: أبيضُ وبيضٌ. وقال الأخفش: هذا لا يكونُ في الواحد، إنَّما يكون في الجمع. ورجلٌ فِيلُ الرأي، أي: ضعيف الرأي، والجمعُ أفيال. ورجلٌ فالٌ، أي: ضعيفُ الرأي، مخطئُ الفِراسةِ. وقد فال الرأيُ يَفِيلُ فُيولة، وفَيَّل رأيَه تفييلاً، أي: ضعَّفه، فهو فَيِّل الرأي[3].

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٥٢٣ ، وزاد المسير ٩/ ٢٣١ .

(٢) معاني القرآن للزجاج ٥/ ٣٦٣ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وفيه: لأن كيف من حروف الاستفهام. وقال مكي في مشكل إعراب القرآن ٢/ ٨٤٤ : ولا يعمل فيه «تر» لأن فيه معنى الاستفهام، ولا يعمل فيه ما قبله.

(٣) الصحاح (فيل)، وقول ابن السكيت في إصلاح المنطق ص ١٩١ ، وقول سيبويه في الكتاب ٣/ ٥٩٢ .

الثالثة: في قصة أصحابِ الفيل، وذلك أنَّ أبرهةَ بنى القُلَّيْسَ بصنعاء، وهي كنيسةٌ لم يُر مِثلُها في زمانها بشيءٍ من الأرض، وكان نصرانيًا، ثم كتب إلى النجاشيِّ: إنِّي قد بَنَيْتُ لك أيها الملكُ كنيسةً لم يُبْنَ[١] مثلُها لملِك كان قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرِف إليها حجَّ العربِ.

فلمَّا تحدَّثت العربُ بكتابِ أبرهةَ ذلك إلى النجاشيِّ، غضب رجلٌ من النَّسَأة[٢]، فخرج حتى أتى الكنيسةَ، فقعد فيها ـ أي: أَحْدَثَ ـ ثم خرج فلَحِقَ بأرضه، فأُخْبِر بذلك أبرهةُ، فقال: مَن صنع هذا؟ فقيل: صَنَعه رجلٌ من أهلِ هذا البيت الذي تحجُّ إليه العرب بمكة، لمَّا سمِع قولكَ: أَصْرِفُ إليها حجَّ العرب، غضب، فجاء فقعد فيها، أي: أنها ليست لذلك بأهل. فغضب عند ذلك أبرهةُ، وحلف ليَسِيرَنَّ إلى البيت حتى يهدِمه، وبعث رجلاً كان عنده إلى بني كِنانةَ يدعوهم إلى حجِّ تلك الكنيسة، فقتَلَتْ بنو كنانةَ ذلك الرجلَ، فزاد أبرهةَ ذلك غضباً وحَنَقًا.

ثم أمر الحبشةَ فتهيَّأَتْ وتجهَّزتْ، ثم سار وخرج معه بالفيل. وسمعتْ بذلك العرب، فأَعْظَموه وفَظِعوا به، ورأَوْا جهادَه حقًّا عليهم حين سمعوا أنه يريد هَدْمَ الكعبةِ بيتِ الله الحرام. فخرج إليه رجلٌ من أشرافِ أهلِ اليمنِ وملوكِهم يقال له: ذو نَفْر، فدعا قومه ومَن أجابه مِن سائر العرب إلى حربِ أبرهةَ وجهادِه عن بيت الله الحرام، وما يريد مِن هَدْمِه وإخرابه، فأجابه مَن أجابه إلى ذلك، ثم عَرَضَ له فقاتَلَه، فهُزِم ذو نَفْرٍ وأصحابُه، وأُخِذ له ذو نفرٍ فأُتي به أسيراً، فلمَّا أراد قَتْلَه قال له ذو نَفْر: أيها الملك لا تقتُلْني، فإنَّه عسى أن يكون بقائي معك خيراً لك من قتلي. فتركه من القتل، وحَبَسه عنده في وَثاق، وكان أبرهةُ رجلاً حليماً.

ثم مضى أبرهةُ على وجهه ذلك يريد ما خرج له، حتى إذا كان بأرضِ خَثْعَمَ

---

(١) في (ظ): لم ير.

(٢) بعدها في سيرة ابن هشام ١/٤٣ : أحد بني فقيم بن عدي بن عامر...، والنسأة: الذين كانوا ينسؤون الشهور على العرب في الجاهلية.

عَرَضَ له نُفَيل بن حبيب الخَثْعَمِيُّ في قبيلَتيْ خثعم: شَهرانَ وناهِسٍ، ومَن تَبِعه من قبائل العرب، فقاتَلَه فهزمه أبرهةُ، وأُخِذ له نُفيل أسيراً، فأُتي به، فلمَّا همَّ بقتله قال له نُفَيل: أيها الملك لا تقتلني، فإنِّي دليلُك بأرض العرب، وهاتان يداي لك على قبيلتي خثعم ـ شهران وناهِس ـ بالسمع والطاعة. فخلَّى سبيلَه. وخرج به معه يدلُّه. حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن مُعَتِّب في رجالٍ من ثَقيف، فقالوا له: أيها الملك، إنَّما نحن عبيدُك، سامعون لك مُطيعون، ليس عندنا لك خلافٌ، وليس بيتُنا هذا البيتَ الذي تريد ـ يعنون اللَّاتَ ـ إنَّما تريدُ البيتَ الذي بمكة، ونحن نبعثُ معك مَن يَدُلُّك عليه. فتجاوَزَ عنهم، وبعثوا معه أبا رِغال، حتى أنزله المغمَّس[1] فلمَّا أنزله به مات أبو رِغال هناك، فَرَجَمت قبرَه العرب، فهو القبرُ الذي يرجمُ الناسُ بالمغمَّس، وفيه يقول الشاعر:

وأرجُمُ قبرَه في كلِّ عامٍ   كَرجْمِ الناسِ قبرَ أبي رِغالِ[2]

فلمَّا نزل أبرهةُ بالمغمَّس، بعث رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود على خيل له، حتى انتهى إلى مكةَ، فساق إليه أموالَ أهلِ تهامةَ من قريش وغيرِهم، وأصاب فيها مئتي بعيرٍ لعبد المطَّلب بن هاشم، وهو يومئذٍ كبيرُ قريشٍ وسيدُها، فهمَّتْ قريشٌ وكنانةُ وهُذَيْلٌ ومَن كان بذلك الحرم بقتاله، ثم عرفوا أنهم لا طاقةَ لهم به، فتركوا ذلك.

وبعث أبرهةُ حُناطةَ الحِميريَّ إلى مكة، وقال له: سَلْ عن سيد هذا البلد وشريفِهم، ثم قل له: إنَّ الملك يقول: إنِّي لَمْ آتِ لحربكم، إنَّما جئتُ لهدم هذا البيت، فإنْ لم تَعرضوا لي بحربٍ، فلا حاجةَ لي بدمائكم. فإنْ هو لم يُرِدْ حربي فأْتني به. فلمَّا دخل حُناطةُ مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبدُ المطلب

---

(١) بتشديد الميم وفتحها، وقيل: بكسرها، موقع قرب مكة في طريق الطائف. ينظر معجم البلدان ١٦١/٥، والروض الأنف ٦٨/١.

(٢) البيت لمسكين الدارمي، كما في الحيوان ١٥٧/٦، وثمار القلوب لأبي منصور الثعالبي ص١٣٦.

ابنُ هاشم، فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة، فقال له عبد المطلب: والله ما نريدُ حربَه، وما لنا بذلك منه طاقة[١]، هذا بيتُ الله الحرامُ، وبيتُ خليله إبراهيمَ عليه السلام ـ أو كما قال ـ فإنْ يمنعْه منه فهو حَرمُه وبيتُه، وإن يُخلّ[٢] بينه وبينه، فوالله ما عندنا دفعٌ عنه. فقال له حُناطة: فانطلِقْ إليه؛ فإنّه قد أمرني أنْ آتيَه بك، فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعضُ بنيه، حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نَفْر ـ وكان صديقاً له ـ حتى دخل عليه وهو في مَحْبِسه، فقال له: يا ذا نفْر، هل عندك من غَناءٍ فيما نزل بنا؟ فقال له ذو نفْر: وما غَنَاءُ رجلٍ أسيرٍ بيدي ملكٍ، ينتظر أن يقتله غُدُوًّا وعَشِيًّا! ما عندي غَناءٌ في شيءٍ ممَّا نزل بك، إلّا أنَّ أُنيساً سائسَ الفيلِ صديقٌ لي، فسأرسلُ إليه وأُوصِيه بك، وأُعظِمُ عليه حقَّكَ، وأسألُه أن يستأذن لك على الملك، فتكلِّمه بما بدا لك، ويشفع لك عنده بخيرٍ إنْ قَدَر على ذلك. فقال: حَسْبي. فبعث ذو نفْر إلى أُنَيس فقال له: إنَّ عبد المطلب سيدُ قريش، وصاحبُ عَيْن[٣] مكةَ، يطعمُ الناسَ بالسهل، والوحوشَ في رؤوس الجبال، وقد أصاب له الملك مئتي بعير، فاسْتَأْذِنْ له عليه، وانْفَعْه عنده بما استطعت. فقال: أَفْعَلُ. فكلَّم أُنيسٌ أبرهةَ، فقال له: أيها الملك، هذا سيدُ قريشٍ ببابك، يستأذن عليك، وهو صاحبُ عَيْن مكة، يطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال؛ فأْذَنْ له عليك، فليكلِّمْك[٤] في حاجته. قال: فأَذِن له أبرهة.

وكان عبد المطَّلب أوسمَ الناس وأعظمَهم وأجملَهم، فلمَّا رآه أبرهةُ أَجَلَّه وأَعْظَمَه عن أن يُجلسه تحته، فنزل أبرهةُ عن سريره فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جَنْبه، ثم قال لترجمانه: قل له: حاجتك[٥]؟ فقال له ذلك التُّرجُمان، فقال:

(١) في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٣٨: وما لنا بذلك من طاقة.

(٢) في (ظ): وإن لم يحل.

(٣) في تفسير الطبري: عير، في الموضعين.

(٤) في (د): يكلمك، وفي (م) والسيرة: فيكلمك، والمثبت من باقي النسخ وتفسير الطبري.

(٥) في (د) وتفسير الطبري: ما حاجتك. والمثبت من باقي النسخ والسيرة.

حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك مئتي بعيرٍ أصابها لي. فلمَّا قال له ذلك، قال أبرهة لتَرْجُمانه: قل له: لقد كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم قد زهِدْتُ فيك حين كلَّمتني، أتكلِّمني في مئتي بعيرٍ أَصَبْتُها لك، وتتركُ بيتاً هو دينُك ودينُ آبائك، قد جئتُ لهدمه، لا تكلِّمُني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إنِّي أنا ربُّ الإبل، وإنَّ للبيت ربًّا سيمنعُه. قال: ما كان لِيمتنعَ منِّي! قال: أنت وذاك. فردَّ عليه إبلَه.

وانصرف عبد المطلب إلى قريش، فأخبرهم الخبر، وأمرهم بالخروج من مكة والتحرُّزِ في شَعَف الجبال والشِّعاب؛ تخوُّفاً عليهم مَعَرَّةَ الجيش(١). ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلْقةِ بابِ الكعبة، وقام معه نَفَرٌ من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهةَ وجندِه، فقال عبد المطلب وهو آخذٌ بحلقةِ بابِ الكعبة:

لاهُمَّ إنَّ العَبْدَ يَمْـ ... ـنعُ رَحْلَه فامنعْ حِلالَكْ
لا يَغْلِبَنَّ صَليبُهُمْ ... ومِحالُهُمْ عَدْوًا مِحالَكْ
إنْ كنتَ تارِكَهم وبلـ ... ـدتنا(٢) فأمرٌ ما بدا لك(٣)

يقول: أي شيء ما بدا لك لم تكن تفعلُه بنا(٤). والحِلال: جمع حِلّ(٥). والمِحال: القوَّة. وقيل: إنَّ عبد المطلب لمَّا أخذ بحلقةِ بابِ الكعبةِ قال:

---

(١) أي: شدته. وقوله: وشعف الجبال، أي: رؤوسها، والشعاب: المواضع الخفية بين الجبال. الإملاء المختصر ١/ ٨٨.

(٢) في النسخ عدا (د): إن يدخلوا البلد الحرام، والمثبت من (د). وجاء في سيرة ابن هشام: إن كنت تاركهم وقبلتنا. وفي السير والمغازي لابن إسحاق ص ٦٢ :

إن يدخلوا البلد الحرام ... غداً فأمر ما بدا لك

(٣) قال ابن هشام: هذا ما صح له منها. ووقع في (د) زيادة: جروا جميع جيوشهم والفيل كي يسبوا عيالك قصدوا حماك بكيدهم عدواً وما رقبوا جلالك. وهذه الزيادة ذكرها ابن الجوزي ٩/ ٢٣٤ باختلاف يسير.

(٤) السير والمغازي ص ٦٢ ، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ١١٩ .

(٥) وذكر أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ١/ ٨٨ أن الحِلال - بكسر الحاء - جمع حِلَّة، وهي جماعة البيوت. وقال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٠ : الحلال في هذا البيت: القوم الحلولُ في المكان، والحلال أيضاً: متاع البيت، وجائز أن يستعيره ههنا.

يـا رَبِّ لا أرجُـو لَـهـمْ سِـواكـا يـا ربِّ فـامـنـعْ مـنـهـمُ حِـمـاكـا
إنَّ عــدوَّ الــبـيـتِ مَـن عـاداكـا إنَّـهـمُ لـن يَـقْـهَـروا قُـوَاكـا(١)

وقال عكرمةُ بن عامر بنِ هاشم بنِ عبد مناف بن عبد الدار بن قصي:

لاهُـمَّ أخْـزِ الأسـودَ بـن مـقـصـود الآخِـذَ الـهَـجْـمَـةَ فـيـهـا الـتَّـقْـلِـيـدْ
بـيـن حـراءٍ وثَـبِـيـرٍ فـالـبِـيـدْ يـحـبـسـهـا وهـي أولاتُ الـتَّـطْـريـدْ
فـضَـمَّـهـا إلـى طَـمـاطِـمٍ سُـودْ قَـدْ أَجْـمَـعُـوا أَلَّا يـكـون مَـعْـبُـودْ
ويـهـدمـوا الـبـيـتَ الـحـرامَ الـمَـعْـمُـودْ والـمـرْوَتَـيـنِ والْـمَـشَـاعـرَ الـسُّـودْ
أَخْـفِـرْه يـا ربِّ وأنـت مـحـمـودْ(٢)

قال ابن إسحاق: ثم أَرسل عبد المطلب حَلْقةَ بابِ الكعبة، ثم انطلق هو ومَن معه من قريش إلى شَعَف الجبال، فتحرَّزوا فيها ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكةَ إذا دخلها. فلمَّا أصبح أبرهةُ تهيَّأ لدخول مكةَ، وهيَّأ فيلَه، وعبَّأ جيشه، وكان اسم الفيل محموداً، وأبرهةُ مُجْمِعٌ لهدم البيت، ثم الانصرافِ إلى اليمن. فلمَّا وجَّهوا الفيلَ إلى مكة، أقبل نُفَيْل بن حبيب، حتى قام إلى جَنْبِ الفيل، ثم أخذ بأُذنه فقال له: ابْرُكْ محمودُ، وارجع راشداً من حيث جئتَ، فإنَّك في بلد الله الحرام. ثم أرسل أُذُنَه، فبرك الفيل(٣). وخرج نُفيل بن حبيب يشتدُّ، حتى أَصْعدَ في الجبل. وضربوا الفيلَ

(١) السير والمغازي لابن إسحاق ص ٦٤ ، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٤١ ، والبيت الأخير فيه برواية: امنعهم أن يخربوا قراكا.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٣٩ ، وهي في سيرة ابن هشام ١/ ٥١ دون قوله: قد أجمعوا... السود.

الهجمة: القطعة من الإبل، قيل: ما بين الخمسين إلى الستين. وقوله: فيها التقليد، أي: في أعناقها قلائد. وحراء وثبير جبلان بمكة. والبيد جمع بيداء، وهي القفر. والطماطم: الأعاجم، واحدهم: طُمْطُمان. وقوله: أخفره، أي: انقض عهده، فلا تؤمِّنه. ينظر الروض الأنف ١/ ٧١ ، والإملاء المختصر ١/ ٨٩ .

(٣) قال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧١ : قوله: فبرك الفيل، فيه نظر؛ لأن الفيل لا يبرك، فيحتمل أن يكون بروكه: سقوطه إلى الأرض لمَا جاءه من أمر الله سبحانه، ويحتمل أن يكون فَعَلَ فِعْلَ البارك الذي يلزم موضعه ولا يبرح، فعبَّر بالبروك عن ذلك.

ليقومَ فأبى، فضربوا في رأسه بالطَّبرزِين[١] ليقوم فأبى؛ فأدخلوا محاجِنَ[٢] لهم في مرَاقِّه فبَزَغوه بها[٣] ليقوم، فأبى، فوجَّهوه راجعاً إلى اليمن، فقام يُهَروِلُ، ووجَّهوه إلى الشام ففَعَلَ مثل ذلك، ووجَّهوه إلى المَشْرِق ففعل مثل ذلك، ووجَّهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيراً من البحر، أمثالَ الخطاطيفِ والبَلَسان[٤]، مع كلِّ طائرٍ منها ثلاثةُ أحجارٍ يحملها: حجرٌ في مِنقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحِمَّصِ والعَدَس، لا تصيبُ منهم أحداً إلَّا هلك، وليس كلَّهم أصابتْ. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريقَ التي جاؤوا منها، ويسألون عن نُفيل بن حبيب ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل بنُ حبيب حين رأى ما أنزل الله بهم من نِقْمَتِه:

أيــن الــمَــفَــرُّ والإلــهُ الــطَّــالــبُ ... والأَشْرَمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

وقال أيضاً:

حَـمِـدْتُ الـلـه إذ أَبْـصَـرْتُ طَـيْـراً ... وخِـفْـتُ حِـجـارَةً تُـلْـقَـى عـلـيـنـا
فـكـلُّ الـقـومِ يـسـألُ عـن نُـفَـيـلٍ ... كَـأَنَّ عَـلَـيَّ لِـلْـحُـبْـشـان دَيْـنـا

فخرجوا يتساقطون بكلِّ طريق، ويهلِكون على كلِّ سَهْل[٥]، وأُصيب أَبرهةُ في جسده، وخرجوا به معهم يسقطُ أنملةً أنملةً، كلَّما سقطت منه أنملةٌ أَتْبَعتْها منه مِدَّةٌ تمثُّ قيحاً ودمًا[٦]؛ حتى قدموا به صنعاءَ وهو مثلُ فرخ الطائر، فما مات حتى انْصَدَع

---

(١) آلةٌ مُعَقَّفةٌ من حديد. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٢) جمع مِحْجَن، وهي عصاً معوجَّةٌ، وقد يجعل في طرفها حديد. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٣) أي: شرطوه بالحديد الذي في تلك المحاجن. وقوله: في مراقِّه، يعني في أسفل بطنه. الإملاء المختصر ١/ ٨٩.

(٤) ضَرْبان من الطير. الإملاء المختصر ١/ ٨٩ - ٩٠.

(٥) في سيرة ابن هشام وتفسير الطبري: منهل، ووقع في السيرة: ويهلكون بكل مهلك على كل منهل. قال أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ص ٩٠: المنهل موضع ورود الماء، وجمعه مناهل.

(٦) قوله: تمث، أي: تسيل، وقيل: ترشح. الإملاء المختصر ١/ ٩٠. وقال السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٣: تمُث وتمِث بالضم والكسر، فعلى رواية الضم يكون الفعل متعدياً، ونصب قيحاً على المفعول. وعلى رواية الكسر يكون غير متعدٍّ، ونصب قيحاً على التمييز في قول أكثرهم.

صدرُه عن قلبه، فيما يزعمون.

وقال الكلبيُّ ومقاتل بنُ سليمان ـ يزيدُ أحدُهما وينقص ـ: سببُ الفيلِ ما رُوي أنَّ فِتْيةً من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض النجاشيِّ، فنزلوا على ساحل البحر إلى بِيعةٍ للنصارى، تسمِّيها النصارى الهَيْكل، فأَوْقَدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارْتَحلوا، فهبَّتْ ريحٌ عاصفٌ على النار فأضرمت[١] البِيعةَ ناراً فاحْتَرقتْ، فأتى الصَّرِيخُ إلى النجاشيِّ فأخبره، فاستشاط غضباً. فأتاه أبرهةُ بنُ الصَّبَّاح وحُجْر بن شراحيل[٢] وأبو يَكْسوم الكِنْديون؛ وضَمِنوا له إحراقَ الكعبةِ وسَبْيَ مكة. وكان النجاشيُّ هو الملك، وأبرهةُ صاحبُ الجيش، وأبو يكسوم نديمُ الملك، وقيل: وزيره[٣]، وحُجْر بن شراحيل من قوَّاده. وقال مجاهد: أبو يكسوم هو أبرهةُ بن الصباح. فساروا ومعهم الفيل. قال الأكثرون: هو فيلٌ واحد. وقال الضحاك: هي ثمانيةُ فِيَلَة. ونزلوا بذي المَجاز[٤]، واستاقوا سَرْحَ مكةَ، وفيها إبلُ عبدِ المطلب. وأتى الراعي نذيراً، فصعد الصفا وصاح: واصباحاه! ثم أخبر الناس بمجيء الجيشِ والفيل. فخرج عبد المطلب، وتوجَّه إلى أبرهة، وسأله في إبله.

واختُلِف في النجاشيِّ، هل كان معهم؟ فقال قوم: كان معهم. وقال الأكثرون: لم يكن معهم.

وبصُر[٥] أهلُ مكةَ بالطير قد أقبلت من ناحية البحر، فقال عبد المطلب: إنَّ هذه الطيرَ غريبةٌ بأرضنا، وما هي بنَجْديةٍ ولا تِهاميةٍ ولا حجازية، وإنَّها أشباهُ

---

(١) في (ظ): فاضطرمت.

(٢) في (م): شرحبيل، وفي (د): سرجيل، في الموضعين.

(٣) في النسخ: وزير، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٤٠، والكلام منه.

(٤) موضع سوق على ناحية كبكب، على فرسخ من عرفة، كانت تقوم في الجاهلية ثمانية أيام. معجم البلدان ٥/ ٥٥.

(٥) في (د) و(م): ونظر.

اليَعاسيب[١]. وكان في مناقيرها وأرجلها حجارةٌ، فلمَّا أطلَّت[٢] على القوم ألقتها عليهم، حتى هلكوا. قال عطاء بن أبي رباح: جاءت الطير عشيةً، فباتت، ثم صبَّحَتْهم بالغَداةِ فرمَتْهم[٣].

وقال الكلبيُّ: في مناقيرها حصًى كحصى الخَذْفِ، أمامَ كلِّ فرقةٍ طائرٌ يقودُها، أحمرُ المِنقار، أسودُ الرأس، طويلُ العنق. فلمَّا جاءت عَسْكَرَ القومِ وتَوافَتْ، أَهالَتْ ما في مناقيرها على مَن تحتَها، مكتوبٌ على كلِّ حجرٍ اسمُ صاحبِه المقتولِ به. وقيل: كان على كلِّ حجر مكتوبٌ: مَن أطاع الله نجا، ومَن عصاه غَوَى. ثم انصاعت راجعةً من حيث جاءت.

وقال العَوفيُّ: سألتُ عنها أبا سعيد الخُدْرِيَّ، فقال: حمامُ مكةَ منها[٤].

وقيل: كان يقع الحجرُ على بيضة أحدِهم فيخرقها ويقع في دِماغه، ويخرقُ الفيلَ والدابَّة. ويغيب الحجر في الأرض من شدَّة وَقْعِه.

وكان أصحابُ الفيل ستِّين ألفاً، لم يرجع منهم أحدٌ إلَّا أميرُهم، رجع ومعه شِرذمةٌ لطيفة. فلمَّا أَخبَروا بما رَأَوْا هَلَكوا.

وقال الواقديُّ: أبرهةُ جدُّ النجاشيِّ الذي كان في زمان رسولِ الله ﷺ[٥].

وأبرهةُ هو الأشرمُ، سمِّي بذلك لأنَّه تَفَاتَنَ مع أرياط، حتى تَزاحَفا، ثم اتَّفقا على أن يلتقيا بشَخْصَيْهما، فَمَن غَلَب فله الأمرُ. فتبارزا، وكان أَرْياطُ جسيماً عظيماً، في يده حربةٌ، وأبرهةُ قصيراً حادِراً[٦]، حليماً ذا دينٍ في النصرانية، ومع أبرهةَ وزيرٌ

---

(١) اليعسوب: أمير النحل. القاموس (عسب).

(٢) في (د): أقبلت.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٤٠ - ٣٤١.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٣٤١، والكشاف ٤/ ٢٨٦.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤١، وذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٤٤٩ وزاد: وآمن به.

(٦) الحادر: السمين. اللسان (حدر).

له يقال له: عتودة، فلمَّا دَنَوْا ضرب أرياط بحربته رأسَ أبرهة، فوقعت على جبينه، فشَرَمَتْ عينَه وأنفه وجبِينه وشفته؛ فلذلك سُمِّي الأشرم. وحمل عتودةُ على أرياط فقتله. فاجتمعت الحبشةُ لأبرهة، فغضب النجاشيُّ، وحلف ليَجُزَّنَّ ناصيةَ أبرهةَ، ويَطَأنَّ بلادَه. فجزَّ أبرهةُ ناصيته، وملأ مِزودًا من تراب أرضه، وبعث بهما إلى النجاشيِّ، وقال: إنَّما كان عبدَك، وأنا عبدُك، وأنا أَقْوَمُ بأمر الحبشة، وقد جززتُ ناصيتي، وبعثتُ إليك بترابِ أرضي لتطأه وتبرَّ في يمينك، فرضي عنه النجاشيّ[١]. ثم بنى أبرهةُ كنيسةً بصنعاء ليَصْرِفَ إليها حجَّ العرب؛ على ما تقدَّم.

الرابعة: قال مقاتل: كان عامُ الفيلِ قبلَ مولدِ النبيِّ ﷺ بأربعين سنةً. وقال الكلبيُّ وعُبيد بن عمير: كان قبل مولدِ النبيِّ ﷺ بثلاثٍ وعشرين سنة[٢]. والصحيحُ ما روي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «وُلدتُ عامَ الفِيلِ». وروي عنه أنه قال: «يومَ الفِيل». حكاه الماوَرْدِيُّ في التفسير له[٣]. وقال في كتاب «أعلام النبوّة[٤]»: ولِد رسولُ الله ﷺ يومَ الاثنين الثاني عَشَر من ربيع الأوّل، وكان بعد الفيلِ بخمسين يومًا. ووافق من شهورِ الروم العشرين من أشباط[٥]، في السنة الثانية عَشْرَة من ملكِ هُرْمُز بن أنوشروان. قال: وحكى أبو جعفر الطبريُّ[٦] أنَّ مولد النبيِّ ﷺ كان لاثنتين وأربعين

---

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٤١ - ٤٢ ، وعرائس المجالس ص ٤٤٣ - ٤٤٤ .

(٢) عرائس المجالس ص ٤٤٩ ، والنكت والعيون ٦/ ٣٣٨ .

(٣) النكت والعيون ٦/ ٣٣٨ ، وأخرج الرواية الأولى البيهقي في دلائل النبوة ١/ ٧٥ عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: ولد النبي ﷺ عام الفيل. وكذا أخرجه ابن سعد في الطبقات ١/ ١٠١ إلا أن فيه: يوم الفيل، وهي الرواية الثانية، وزاد ابن سعد: يعني عام الفيل. وقد ثبتت ولادة النبي ﷺ في عام الفيل عن غير واحد من الصحابة وغيرهم، ينظر طبقات ابن سعد ١/ ١٠٠ - ١٠١ ، ودلائل النبوة للبيهقي ١/ ٧٥ - ٧٩ . وقال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٦/ ٢٢٥ : لا خلاف بين العلماء بالسير والآثار أن رسول الله ﷺ ولد عام الفيل.

(٤) ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

(٥) في أعلام النبوة: شباط، وكلاهما صواب، وكذلك سُباط بالسين. ينظر التاج (سبط)، وصبح الأعشى ٢/ ٣٩٢ .

(٦) في تاريخه ٢/ ١٥٤ .

سنةً من ملك أنوشروان.

وقد قيل: إنَّه عليه الصلاة والسلام حملتْ به أمُّه آمنةُ في يوم عاشوراءَ من المحرَّم، وولد يومَ الاثنين لاثنتي عَشْرةَ ليلةً خَلَتْ من شهر رمضان[(١)]، فكانت مدَّةُ حملِه ثمانيةَ أشهرٍ كَمَلاً ويومين من التاسع.

وقيل: إنَّه ولد يومَ عاشوراءَ من شهر المحرم؛ حكاه ابن شاهين أبو حفص[(٢)]، في «فضائلِ يومِ عاشوراءَ» له.

ابن العربيّ[(٣)]: قال ابن وهب عن مالك: وُلد رسولُ الله ﷺ عامَ الفيل، وقال قيس بن مَخْرَمَةَ: ولدتُ أنا ورسولُ الله ﷺ عامَ الفيل[(٤)]. وقد روى الناس عن مالك أنه قال: من مروءة الرجل ألَّا يُخبِر بسنِّه؛ لأنَّه إنْ كان صغيرًا استَحْقَروه وإنْ كان كبيراً استَهْرَموه. وهذا قولٌ ضعيف؛ لأنَّ مالكاً لا يُخبِرُ بسنِّ رسولِ الله ﷺ ويكتم سِنَّه، وهو من أعظم العلماءِ قدوةً به. فلا بأسَ بأن يخبر الرجلُ بسنِّه كان كبيراً أو صغيراً.

وقال عبد الملك بن مروان لقَبَاث بنِ أَشْيَم[(٥)]: أنت أكبرُ أم النبيُّ ﷺ؟ فقال: النبيُّ ﷺ أكبرُ منِّي، وأنا أسنُّ منه؛ وُلد النبيُّ ﷺ عامَ الفيل، وأنا أدركتُ سائسَه وقائدَه أَعْمَيَيْن مُقْعَدين يستطعمان الناس[(٦)].

وقيل لبعض القضاة: كم سنُّك؟ قال: سنُّ عَتَّاب بنِ أَسيد حين ولَّاه النبيُّ ﷺ

---

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخه ٣/ ٦٦ عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) هو عمر بن أحمد بن عثمان البغدادي الواعظ، صاحب التفسير الكبير، توفي سنة (٣٨٥هـ). السير ١٦/ ٤٣١ .

(٣) في أحكام القرآن ٤/ ١٩٦٨ .

(٤) أخرجه أحمد (١٧٨٩١)، والترمذي (٣٦١٩) وقال: حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق.

(٥) في النسخ: لعتاب بن أسيد، والمثبت من المصادر ـ على ما يأتي ـ وهو الصواب.

(٦) أخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والثاني (٩٢٧)، والطبراني في الكبير ١٩/ (٧٥)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٨٤)، والبيهقي في الدلائل ١/ ٧٨ ، ووقع في هذه المصادر: وتنبئ على رأس أربعين من الفيل، بدل قوله: وأنا أدركت سائسه...، وقد روي هذا عن عائشة رضي الله عنها كما سيرد.

مكةَ. وكان سنُّه يومئذٍ دون العشرين[(١)].

الخامسة: قال علماؤنا: كانت قصةُ الفيلِ فيما بعدُ من معجزات النبيِّ ﷺ، وإن كانت قبلَه وقبلَ التحدِّي؛ لأنَّها كانت توكيداً لأمره، وتمهيداً لشأنه. ولمَّا تلا عليهم رسول الله ﷺ هذه السورة، كان بمكةَ عددٌ كثيرٌ ممن شهد تلك الوَقْعةَ؛ ولهذا قال: «ألم تر»، ولم يكن بمكةَ أحدٌ إلَّا وقد رأى قائدَ الفيلِ وسائقَه أعميين يتكفَّفان الناس. وقالت عائشةُ رضي الله عنها مع حَداثةِ سنِّها: لقد رأيتُ قائدَ الفيلِ وسائقَه أعميَيْن يستطعمان الناس[(٢)].

وقال أبو صالح: رأيتُ في بيتِ أمِّ هانئ بنتِ أبي طالب نحوًا من قفيزين من تلك الحجارة، سوداً مخططةً بحُمْرةٍ[(٣)].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ أي: في إبطالٍ وتضييعٍ؛ لأنَّهم أرادوا أن يكيدوا قُريشاً بالقتل والسبي، والبيتَ بالتخريبِ والهَدْمِ. فحُكي عن عبد المطلب أنَّه بعث ابنَه عبدَ الله على فرسٍ له، ينظر ما لَقُوا من تلك الطير، فإذا القومُ مُشَدَّخون[(٤)] جميعاً، فرجع يركضُ فرسه، كاشفاً عن فخذه، فلمَّا رأى ذلك أبوه قال: إنَّ ابني هذا أفرسُ العرب، وما كَشَفَ عن فخذه إلَّا بشيراً أو نذيراً. فلمَّا دنا من ناديهم بحيث يُسْمِعُهم الصوتَ، قالوا: ما وراءك؟ قال: هَلَكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابُه، فأخذوا أموالَهم. وكانت أموالُ بني عبدِ المطَّلبِ منها، وبها تَكامَلَتْ رياسةُ عبدِ المطَّلب؛ لأنَّه احْتَمَل ما شاء من صفراءَ وبيضاء، ثم خرج أهلُ

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤/ ١٩٦٨.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٦٥، والبزار (١١٧٦ ـ كشف). وهو في سيرة ابن هشام ١/ ٥٧. ووقع في هذه المصادر: وسائسه، بدل: وسائقه.

(٣) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٣، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩٦ لابن مردويه وأبي نعيم.

(٤) في النسخ: مشدخين، والمثبت من المصادر، على ما يأتي.

مكة بعده ونهبوا(١).

وقيل: إنَّ عبد المطلب حَفَر حفرتين فملأهما من الذهب والجوهر، ثم قال لأبي مسعودٍ الثقفيِّ ـ وكان خليلاً لعبد المطلب ـ: اختَرْ أيَّهما شئت. ثم أصاب الناسُ من أموالهم حتى ضاقوا ذرعاً(٢)، فقال عبد المطلب عند ذلك:

أنتَ مَنَعْتَ الحُبْشَ والأفْيالا وقد رَعَوا بمكةَ الأجْبالا
وقد خَشِينا منهمُ القتالا وكلَّ أمرٍ لهمُ مِعْضَالَا
شُكْرًا وحَمْدًا لك ذا الجلالا(٣)

قال ابن إسحاق: ولمَّا ردَّ الله الحَبَشةَ عن مكةَ عَظَّمت العرب قريشاً، وقالوا: [هم] أهلُ الله، قاتَلَ عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم(٤). وقال عبد الله بن عمرو بن مخزوم في قصة أصحاب الفيل:

أنت الجليلُ ربَّنا لم تُدْنِسِ أنت حَبَسْتَ الفيلَ بالمُغَمَّسِ
من بعد ما هَمَّ بشرٌّ مُبْلِس حَبَسْتَه في هيئة المُكَرْكَسِ
وما لهم من فَرَجٍ ومنفسِ(٥)

والمكَرْكَس: المنكوس المطروح.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾

قال سعيد بن جبير: كانت طيراً من السماء لم يُرَ قبلها ولا بعدها مثلُها(٦).

(١) النكت والعيون ٦/ ٣٤١ ، وهو قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦) عن عثمان بن المغيرة.

(٢) ذكره الثعلبي في عرائس المجالس ص ٤٤٨ ، والبغوي ٤/ ٥٢٨ عن مقاتل مطولاً.

(٣) دلائل النبوة لأبي نعيم (٨٦)، والنكت والعيون ٦/ ٣٤٢ . ووقع في (د) و(ز) و(ظ) والدلائل: الجيش، بدل: الحبش.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٧٥ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٥) النكت والعيون ٦/ ٣٤٠ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ .

وروى جويبِر عن الضحاك عن ابن عباس، قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّها طيرٌ بين السماءِ والأرضِ تُعَشِّشُ وتُفرِّخ»[١].

وعن ابن عباس: كان لها خراطيمُ كخراطيم الطير، وأَكُفٌّ كأَكُفِّ الكلاب[٢].

وقال عِكرمةُ: كانت طيراً خُضْرًا، خرجت من البحر، لها رؤوسٌ كرؤوسِ السِّباع، ولم تُرَ قبلَ ذلك ولا بعده[٣]. وقالت عائشةُ رضي الله عنها: هي أَشْبَهُ شيءٍ بالخطاطيف[٤]. وقيل: بل كانت أشباهَ الوطاويط، حمراءَ وسوداء[٥].

وعن سعيد بن جبير أيضًا: هي طيرٌ خُضْرٌ لها مَناقيرُ صُفْرٌ[٦]. وقيل: كانت بِيضًا.

وقال محمد بن كعب: هي طيرٌ سودٌ بَحْرِيَّةٌ، في مناقيرها وأظفارِها الحجارة[٧]. وقيل: إنَّها العنقاءُ المُغرِبُ التي تُضْرَبُ بها الأمثالُ؛ قاله عِكرمة[٨].

«أبابِيل» أي: مجتمعة. وقيل: مُتتابعة، بعضُها في إثْرِ بعضٍ؛ قاله ابن عباس ومجاهد. وقيل: مختلفة متفرِّقة، تَجيءُ من كلِّ ناحيةٍ، من هاهنا وهاهنا؛ قاله ابن مسعود وابن زيد والأخفش[٩].

قال النحاس: وهذه الأقوالُ مُتَّفِقةٌ، وحقيقةُ المعنى: أنَّها جماعاتٌ عِظامٌ؛

---

(١) المصدر السابق، وجويبر ضعيف جدًّا، كما ذكر الحافظ في التقريب.

(٢) أخرجه ابن إسحاق في السير والمغازي ص ٦٥ ، والطبري ٢٤/ ٦٣٠ و٦٣١ .

(٣) أخرجه البيهقي في الدلائل ١/ ١٢٣ ، وعزاه السيوطي في الدر المنثور لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن أبي حاتم، وأخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣١ دون قوله: لم تر قبل ذلك ولا بعده.

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ .

(٥) قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦).

(٦) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٢ .

(٧) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣١ عن عبيد بن عمير.

(٨) النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ ، وهو بنحوه عن عكرمة في تفسير مجاهد ٢/ ٧٨٤ . والعنقاء المُغرب: طائر عظيم معروفُ الاسم مجهول الجسم لم يره أحد. النهاية (عنق).

(٩) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢ ، وأخرجها عدا قول الأخفش الطبري ٢٤/ ٦٢٨ - ٦٣٠ .

يقال: فلانٌ يؤبِّلُ على فلان، أي: يعظمُ عليه ويُكْثِر، وهو مشتقٌّ من الإبل.

واختلف في واحدِ «أبابيل»؛ فقال الجوهريُّ: قال الأخفش: يقال: جاءت إبلُكَ أبابيل، أي: فِرقًا، وطيرٌ أبابيل. قال: وهذا يجيءُ في معنى التكثير، وهو من الجمع الذي لا واحدَ له. وقال بعضُهم: واحدُه إبَّوْل، مثل: عِجَّوْل. وقال بعضهم(١): إبِّيل مثل سِكِّين. قال: ولم أَجِدِ العربَ تعرِفُ له واحدًا.

في غير «الصحاح»: وقيل في واحدِه: إبَّال. وقال رؤبةُ بن العجَّاج في الجمع:

ولعبتْ طيرٌ بِهِمْ أبابيلْ فصُيِّروا مِثْلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ(٢)

وقال الأعشى:

طَرِيقٌ وجَبَّارٌ رِواءٌ أُصولُهُ عليه أبابيلٌ مِن الطَّيْرِ تَنْعَبُ(٣)

وقال آخر:

كادت تُهَدُّ من الأصواتِ راحلتي إذ سالتِ الأرضُ بالجُرْدِ الأبابيلِ(٤)

وقال آخر:

تَراهُمْ إلى الدَّاعي سِرَاعًا كأنَّهُمْ أبابيلُ طَيرٍ تَحْتَ دَجْنٍ مُسَجَّنِ(٥)

قال الفرَّاء: لا واحدَ له مِن لَفْظِه، وزعم الرُّؤاسيُّ [لي](٦) - وكان ثقةً - أنه سمع

---

(١) بعدها في (م): وهو المبرد، والمثبت من النسخ الخطية، وهو الموافق لما في الصحاح (أبل)، وذكره عن المبرد النحاس في إعراب القرآن ٥/ ٢٩٢ .

(٢) سيأتي قريباً.

(٣) ديوان الأعشى ص ٢٥١ . قوله: وجبار، الجبار هو النخلة الطويلة الفتية، وتضم. القاموس (جبر). وقال شارح الديوان: ونخلك الطويل المرتفع الضخمُ الجذوعِ، تحط عليه من الطيور أسراب، تتجاوب أصواتها بالتنعاب.

(٤) سلف ٥/ ٤٢٠ .

(٥) في (د) و(ي) و(م): مسخن، والمثبت من (د) و(ظ) وفتح القدير ٥/ ٤٩٦ . وهو في مجمع البيان ٣٠/ ٢٣٨ برواية: تحت داجن مدَجَّن، ونسبه الطبرسي لامرئ القيس، ولم نقف عليه في ديوانه. قوله: دجن، الدَّجْن هو إلباس الغيم السماء، والمطرُ الكثير. الصحاح (دجن).

(٦) ما بين حاصرتين زيادة في معاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٢ ، والرؤاسي هو أبو جعفر الكوفي النحوي أستاذ الكسائي. إنباه الرواة ٤/ ٩٩ .

في واحدها «إبَّالة» مشدَّدة. وحكى الفرَّاء: «إِبَالة» مخفَّفًا. قال: وسمعتُ بعضَ العرب يقول: ضِغْثٌ علَى إبَّالة. يريد: خِصْباً على خِصْبٍ(١). قال: ولو قال قائل: إيبالة، كان صواباً، مثل: دينار ودنانير.

وقال إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل: الأبابيل: مأخوذٌ من الإبل المؤبَّلة، وهي الأقاطيع(٢).

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾﴾

في «الصحاح»: «حجارة من سِجِّيل» قالوا: حجارة من طين، طُبِخَتْ بنارِ جهنَّمَ، مكتوب فيها أسماءُ القوم؛ لقوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ [الذاريات: ٣٣](٣).

وقال عبد الرحمن ابن أَبْزَى: «مِن سِجِّيل»: من السماء، وهي الحجارةُ التي نزلت على قومِ لوط(٤).

وقيل: من الجحيم، وهي «سِجِّين» ثم أُبْدِلت اللامُ نونًا، كما قالوا في أصَيْلان: أُصيلال. قال ابن مقبِل:

ضَرْباً تَواصَتْ به الأبطالُ سِجِّينَا(٥)

(١) كذا شرحه الفراء. وذكر أبو عبيد في الأمثال ص ٢٦٤ عن الأصمعي قال: الإبَّالة: الحزمة من الحطب، والضغث: الجرزة التي فوقها، يقول: هي بلية على أخرى كانت قبلها. ومثله في مجمع الأمثال للميداني ١/ ٤١٩ ، وقال الميداني: وبعضهم يقول: إبَالة مخففاً. وفي جمهرة الأمثال ٢/ ٦ ، والمستقصى ٢/ ١٤٨ : يضرب لمن حمَّلك مكروهاً، ثم زادك عليه.

(٢) النكت والعيون ٦/ ٣٤٣ ، وأخرجه بنحوه الطبري ٢٤/ ٦٢٩ . والأقاطيع جمع على غير قياس للقطيع، وهو الطائفة من الغنم والنعم. القاموس (قطع).

(٣) الصحاح (سجل).

(٤) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٥ إلا أنه فيه عن عبد الرحمن بن زيد، وزاد فيه: والسماء الدنيا اسمها سجيل. قال الطبري: وهذا القول لا نعرف لصحته وجهاً في خبر ولا نقل ولا لغة.

(٥) وصدره: ورجلة يضربون البَيْضَ عن عُرُضٍ. وهو في ديوان ابن مقبل ص ٣٣٣ ، وسلف ١١/ ١٨٨ .

وإنَّما هو: سِجِّيلاً. وقال الزجاج: «مِن سِجِّيل» أي: مما كُتب عليهم أن يُعَذَّبوا به، مشتقٌّ من السِّجِلّ[١]. وقد مضى القولُ في سِجِّيل في «هود» مستوفًى[٢].

قال عِكرمةُ: كانت ترميهم بحجارةٍ معها، فإذا أصاب أحدَهم حجرٌ منها خرج به الجُدَرِيُّ، لم يُر قبلَ ذلك اليوم[٣]. وكان الحجر كالحِمِّصة وفوق العدسة.

وقال ابن عباس: كان الحجر إذا وقع على أحدهم نَفِط جِلْدُه، فكان ذلك أوَّلَ الجُدرِيّ[٤].

وقراءةُ العامَّةِ: «تَرْمِيهِمْ» بالتاء؛ لتأنيثِ جماعةِ الطير. وقرأ الأعرج وطلحة: «يَرْمِيهم» بالياء[٥]، أي: يرميهم الله، دليلُه قولُه تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال:١٧]. ويجوزُ أن يكون راجعًا إلى الطير؛ لخلوِّها من علامات التأنيث، ولأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقيٍّ.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾

أي: جعل الله أصحابَ الفيلِ كورقِ الزرعِ إذا أَكَلَته الدوابُّ فرَمَتْ به من أسفل. شبَّه تَقَطُّعَ أوصالِهم بتَفرُّقِ أجزائه. رُوي معناه عن ابن زيد وغيرِه[٦]. وقد مضى القولُ في العَصْف في سورة الرحمن[٧]. وممَّا يدلُّ على أنَّه ورقُ الزَّرعِ قولُ علقمةَ:

تَسْقي مَذانِبَ قدْ مالتْ عَصِيفَتُها ... حُدورُها من أتيِّ الماءِ مَطْمومُ[٨]

---

(١) بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٣/ ٧١ . وقال الزجاج ٥/ ٣٦٤ عند شرح هذه الآية: من سجيل، أي: من شديدِ عذابه، والعرب إذا وصفت المكروه بالسجيل كأنها تعني به الشدة.

(٢) ١١/ ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٣٣ ، وأبو نعيم في الحلية ٣/ ٣٣٣ ، والبيهقي في الدلائل ١/ ١٢٣ .

(٤) أخرجه عبد الرزاق ٢/ ٣٩٦ .

(٥) القراءات الشاذة ص ١٨٠ .

(٦) تفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٤ - ٦٤٥ .

(٧) عند تفسير الآية (١٢) منها.

(٨) ديوان علقمة ص ٥٥ . وفيه: قد زالت عصيفتها...، قال الأعلم الشنتمري شارح الديوان: قوله: =

وقال رؤبة بن العجاج:

ومَسَّهُمْ ما مَسَّ أصْحابَ الفيلْ ... تَرْمِيهِمُ حِجارةٌ مِنْ سِجِّيلْ
ولَعِبتْ طَيرٌ بهمْ أبابيلْ ... فَصُيِّروا مِثلَ كَعَصْفٍ مَأْكُولْ(١)

العَصْف: جمع، واحدتُه: عَصْفة وعُصافة وعَصِيفة. وأدخل الكافَ في «كَعَصْف» للتشبيه مع مثل، نحو قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١](٢).

ومعنى «مأكول»: مأكولٌ حَبُّه. كما يقال: فلان حسن، أي: حَسَنٌ وجهُه.

وقال ابن عباس: «فجعلهم كعَصْفٍ مأكول» إنَّ المراد به قشرُ البرِّ، يعني الغِلافَ الذي تكون فيه حبةُ القمح(٣). ويُروى أن الحجر كان يقع على أحدهم فيُخرِجُ كلَّ ما في جوفه، فيبقى كقِشْرِ الحنطةِ إذا خرجت منه الحبة.

وقال ابن مسعود: لمَّا رمت الطيرُ بالحجارة، بعث الله ريحاً فضربت الحجارةَ فزادتها شدّة، فكانت لا تقع على أحدٍ إلَّا هلك، ولم يسلَم منهم إلَّا رجلٌ من كِندة، فقال:

فإنَّكِ لَوْ رأيتِ ولم تَريهِ(٤) ... لدى(٥) جنبِ المُغَمّسِ ما لَقِينا
خَشِيتُ اللهَ إذْ قد بَثَّ طيراً ... وظِلَّ سحابةٍ مَرَّتْ علينا

= قد زالت عصيفتها، أي: تفرق ورقُها، وانفتحت وتباينت من الريِّ. والعصيفة: الورق. والمذانب: مسايل الماء. وحدورها: ما انحدر منها واطمأن. والأتيُّ: الجدول. والمطموم: المملوء بالماء.

(١) سيرة ابن هشام ١/ ٥٥، والخزانة ١٠/ ١٨٩، والأبيات في ملحقات ديوان رؤبة ص ١٨١، والبيت الأخير نسبه سيبويه في الكتاب ١/ ٤٠٨ لحميد الأرقط، وهو بلا نسبة في المقتضب ٤/ ١٤١، وسر صناعة الإعراب ١/ ٢٩٦.

(٢) أي: أنه أكد الشَّبَه بزيادة الكاف، إلا أنه في الآية أدخل الحرف على الاسم، وفي البيت أدخل الاسم وهو «مثل» على الحرف وهو الكاف، والتقدير: فصُيِّروا مثلَ مثلِ عصفٍ مأكول. ينظر سر صناعة الإعراب ١/ ٢٩٦، وشرح شواهد الكتاب للشنتمري ص ٢٣٧.

(٣) أخرجه الطبري ٢٤/ ٦٤٥ بنحوه.

(٤) في النسخ: ولو ترانا، بدل: ولم تريه، والمثبت من النكت والعيون ٦/ ٣٤٣، والكلام منه.

(٥) في النسخ الخطية: لذي، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في النكت والعيون.

وبـاتـتْ كـلُّـهـا تـدعـو بِـحَـقٍّ   كـأنَّ لـهـا عـلـى الـحُـبْـشـانِ دَيْـنَـا

ويُروى أنَّها لم تُصِبْهم كلَّهم، لكنَّها أصابت مَن شاء اللهُ منهم. وقد تقدَّم أنَّ أميرهم رجع وشِرْذمةً لطيفةً معه، فلمَّا أَخبروا بما رَأَوْا هلكوا. فالله أعلم.

وقال ابن إسحاق[1]: لمَّا ردَّ الله الحبشةَ عن مكة، عَظَّمت العربُ قريشاً وقالوا: أَهلُ اللهِ، قاتَلَ عنهم، وكفاهم مؤونةَ عدوِّهم؛ فكان ذلك نعمةً من الله عليهم.

(١) سلف قوله ص٤٨٩ من هذا الجزء.

تفسير سورة الفيل

وهى مكية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ (٢) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ (٣) تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ (٤) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ (٥) ﴾ .

هذه من النعم التى امتن الله بها على قريش ، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل ، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود ، فأبادهم الله ، وأرغم آنافهم ، وخيب سعيهم، وأضل عملهم ، ورَدَّهم بشر خيبة . وكانوا قوما نصارى ، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان . ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ ، فإنه فى ذلك العام ولد على أشهر الأقوال ،ولسان حال القدر يقول : لم ننصركم ـ يا معشر قريش ـ على الحبشة لخيريتكم عليهم ، ولكن صيانة للبيت العتيق الذى سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبى الأمى محمد ، صلوات الله وسلامه عليه [١] ، خاتم الأنبياء .

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب ، قد تقدم فى قصة أصحاب الأخدود [٢]: أن ذا نُوَاس ــ وكان آخر ملوك حمير ، وكان مشركاً ــ هو الذى قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى ، وكانوا قريباً من عشرين ألفاً ،فلم يفلت منهم إلا دَوس ذو ثعلبان ، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام ــ وكان نصرانياً ــ فكتب له إلى النجاشى ملك الحبشة ؛ لكونه أقرب إليهم ، فبعث معه أميرين : أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم [٣] ، فى جيش كثيف ، فدخلوا اليمن فجاسوا خلال الديار ، واستلبوا الملك من حمير ،وهلك ذو نواس غريقاً فى البحر . واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران : أرياط وأبرهة ، فاختلفا فى أمرهما وتصاولا وتقاتلا وتصافا ، فقال أحدهما للآخر : إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا ، ولكن ابرز إلى وأبرز إليك ، فأينا قتل الآخر ، استقل بعده بالملك . فأجابه إلى ذلك فتبارزا ، وخَلْفَ كل واحد منهما قناة ، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف ، فشرم أنفه وفمه وشق وجهه ، وحمل عَتْوَدَة مولى أبرهة على أرياط فقتله ،ورجع أبرهة جريحاً ،فداوى جرحه فَبَرأ ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن . فكتب[٤] إليه النجاشى يلومه على ما كان منه ،ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته. فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه ،وبعث مع رسوله بهدايا وتحف ، وبجراب فيها من تراب اليمن ، وجز ناصيته فأرسلها معه ، ويقول فى كتابه : ليطأ الملك على هذا الجراب فيبر قسمه،

(١) فى أ : « ﷺ » .

(٢) عند تفسير الآية : ٤ من سورة البروج .

(٣) فى أ : « أبا يكشوم » .

(٤) فى أ : « فأرسل » .

وهذه ناصيتى قد بعثت بها إليك . فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه ،ورضى عنه ،وأقره على عمله . وأرسل أبرهة يقول للنجاشى : إنى سأبنى لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها . فشرع فى بناء كنيسة هائلة بصنعاء ، رفيعة البناء ، عالية الفناء ، مزخرفة الأرجاء . سمتها العرب القُلَّيس ؛ لارتفاعها ؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته عن رأسه من ارتفاع بنائها . وعزم أبرهة الأشرمُ على أن يصرف حَجّ العرب إليها كما يُحَج إلى الكعبة بمكة ، ونادى بذلك فى مملكته ،فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك ، وغضبت قريش لذلك غضباً شديداً ، حتى قصدها بعضهم ، وتوصل إلى أن دخلها ليلاً . فأحدث فيها وكرّ راجعاً . فلما رأى السدنة ذلك الحدث ، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له : إنما صنع هذا بعض قريش غضباً لبيتهم الذى ضاهيت هذا به ، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة ، وليخربنه حجراً حجراً .

وذكر مقاتل بن سليمان أن فتية من قريش دخلوها فأججوا فيها ناراً ،وكان يوماً فيه هواء شديد فأحرقته ، وسقطت إلى الأرض .

فتأهب أبرهة لذلك ، وصار فى جيش كثيف عَرَمرم ؛لئلا يصده أحد عنه ، واستصحب معه فيلاً عظيماً كبير الجثة لم ير مثله ، يقال له : محمود ، وكان قد بعثه إليه النجاشى ملك الحبشة لذلك . ويقال : كان معه أيضاً ثمانية أفيال . وقيل : اثنا عشر فيلاً . وقيل غيره ، والله أعلم . يعنى ليهدم به الكعبة ،بأن يجعل السلاسل فى الأركان ، وتوضع فى عُنُق الفيل ، ثم يزجر ليلقى الحائط جملة واحدة . فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا ذلك جداً ، ورأوا أن حقاً عليهم المحاجبة [1] دون البيت، ورَد من أراده بكيد . فخرج إليه رجل [كان] [2] من أشراف أهل اليمن وملوكهم ، يقال له «ذو نَفْر » فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة ، وجهاده عن بيت الله ، وما يريد من هدمه وخرابه . فأجابوه وقاتلوا أبرهة ، فهزمهم لما يريده الله ، عز وجل ، من كرامة البيت وتعظيمه ، وأسر « ذو نُفْر » فاستصحبه معه . ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم ، عَرَض له نُفَيل بن حَبيب الخَشْعمى فى قومه : شهران وناهس ، فقاتلوه ، فهزمهم أبرهة ،وأسر نُفَيل بن حبيب ، فأراد قتله ثم عفا عنه ، واستصحبه معه ليدله فى بلاد الحجاز . فلما اقترب من أرض الطائف ، خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم ، الذى عندهم ، الذى يسمونه اللات . فأكرمهم وبعثوا معه « أبا رغَال » دليلاً . فلما انتهى أبرهة إلى المُغَمْس ــ وهو قريب من مكة ــ نزل به وأغار جيشه على سَرْح أهل مكة من الإبل وغيرها ، فأخذوه . وكان فى السرح [3] مائتا بعير لعبد المطلب . وكان الذى أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة ، وكان يقال له : « الأسود بن مَقْصود» فهجاه بعض العرب ــ فيما ذكره ابن إسحاق [4] ــ وبعث أبرهة حناطة الحميرى إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش ، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تَصُدوه عن البيت . فجاء حناطة فَدُل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال ، فقال له عبد المطلب : والله ما نريد حربه ، وما لنا بذلك من طاقة ،هذا بيت الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم ، فإن يمنعه منه فهو بيته

(١) فى أ : المحاجة » . (٢) زيادة من م ، أ . (٣) فى أ : « فى السراح » .

(٤) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥١) .

وحرمه ، وإن يخلى بينه وبينه ، فو الله ما عندنا دَفْع عنه . فقال له حناطة : فاذهب معى إليه. فذهب معه ، فلما رآه أبرهة أجله ، وكان عبد المطلب رجلاً جميلاً حسن المنظر ، ونزل أبرهة عن سريره ،وجلس معه على البساط ، وقال لترجمانه : قل له : حاجَتك ؟ فقال للترجمان : إن حاجتى أن يرد على الملك مائتى بعير أصابها لى . فقال أبرهة لترجمانه : قل له : لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زَهِدت فيك حين كلمتنى ، أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك ، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه ، لا تكلمنى فيه ؟! فقال له عبد المطلب : إنى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربا سيمنعه . قال : ما كان ليمتنع منى ! قال : أنت وذاك .

ويقال : إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت ، فأبى عليهم ، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله ، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة ،والتحصن فى رؤوس الجبال ، تخوفاً عليهم من مَعرة الجيش . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ،وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده ،وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لاهُمَّ (١) إنَّ المرء يمـ ـنَعُ رَحْلَه فامْنع حلالَك
لا يغلبنَّ صَلِيبُهم ومحَالُهم غدواً مِحَالك

قال ابن إسحاق : ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة الباب ، ثم خرجوا إلى رؤوس الجبال (٢).

وذكر مقاتل بن سليمان أنهم تركوا عند البيت مائة بدنة مُقَلَّدة ، لعل بعض الجيش (٣) ينال منها شيئا بغير حق ، فينتقم الله منه .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهيأ فيله ــ وكان اسمه محموداً ــ وعبأ جيشه ، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال : « أبرك محمود ، أو ارجع راشداً من حيث جئت ، فإنك فى بلد الله الحرام » . ثم أرسل أذنه ،فبرك الفيل . وخرج نفيل بن حبيب يَشتد حتى أصعد فى الجبل . وضربوا الفيل ليقوم فأبى.فضربوا فى رأسه بالطْبرزين(٤) وأدخلوا محاجن لهم فى مَرَاقه فبزغوه بها ليقوم ، فأبى ، فوجهوه راجعاً إلى اليمن فقام يهرول . ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك . ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك .ووجهوه إلى مكة فبرك . وأرسل الله عليهم طيراً من البحر أمثال الخطاطيف والبَلَسان مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها : حجر فى منقاره ، وحجران فى رجليه، أمثال الحمص والعَدسَ ، لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت .وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق ،ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق هذا . ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة،وجعل نفيل يقول :

(١) فى أ : « اللهم » .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٢) .

(٣) فى م ، أ : « بعض الحبشة » .

(٤) فى أ : « بالطورين من الآلات » .

أينَ المَفَرُّ ؟ والإلهُ الطَّالب (١) والأشرمُ المغلوبُ غير الغالب (٢)

قال ابن إسحاق : وقال نُفَيل فى ذلك أيضاً :

ألا حُيِّيت عَنـا يا رُدَينا نَعمْناكُم مَـعَ الإصبَـاح عَينَا
رُدَينةُ ، لَو رأيت ــ ولا تَريَه لَدَى جَنْب المحصَّب ــ ما رَأينَا
إذا لَعَذَرتنى وَحَمَدت أمْـرى ولَم تأسى علىَ مَا فات بَيْنَا
حَمدتُ الله إذ أبصَرتُ طيراً وَخفْتُ حَجـارة تُلقَى عَلَينا
فكُلّ القوم يَسألُ عَن نُفَيل كَـأنَّ علىّ للحُبْشَـان دَيـنَا !

وذكر الواقدى بأسانيده أنهم لما تعبؤوا لدخول الحرم وهيؤوا الفيل ، جعلوا لا يصرفونه إلى جهة من سائر الجهات إلا ذهب [فيها] (٣) ، فإذا وجهوه إلى الحرم رَبَض وصاح .وجعل أبرهة يحمل على سائس الفيل وينهره ويضربه ، ليقهر الفيل على دخول الحرم . وطال الفصل فى ذلك . هذا وعبد المطلب وجماعة من أشراف مكة ، منهم (٤) المطعم بن عدى ، وعمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم، ومسعود [بن عمرو] (٥) الثقفى ، على حراء ينظرون إلى ما الحبشة يصنعون ،وماذا يلقون من أمر الفيل ، وهو العجب العجاب . فبينما هم كذلك ، إذ بعث الله عليهم طيراً أبابيل ، أى قطَعاً قطَعاً صفرا دون الحمام ، وأرجلها حمر ، ومع كل طائر ثلاث أحجار ، وجاءت فحلقت عليهم ، وأرسلت تلك الأحجار عليهم فهلكوا .

وقال محمد بن كعب : جاؤوا بفيلين فأما محمود فَربَض ، وأما الآخر فَشَجُع (٦) فحُصِب .

وقال وهب بن مُنَبِّه : كان معهم فيلة ، فأما محمود ــ وهو فيل الملك ــ فربض ، ليقتدى به بقية الفيلة ، وكان فيها فيل تَشَجّع فحصب ، فهربت بقية الفيلة .

وقال عطاء بن يَسَار ، وغيره : ليس كلهم أصابه العذاب فى الساعة الراهنة ، بل منهم من هلك سريعاً ، ومنهم من جعل يتساقط عضواً عضواً وهم هاربون ،وكان أبرهة ممن يتساقط عضواً عضواً ، حتى مات ببلاد خثعم .

قال ابن إسحاق : فخرجوا يتساقطون بكل طريق ، ويهلكون على كل منهل (٧) ، وأصيب أبرهة فى جسده ،وخرجوا به معهم يسقط أنْمُلة أنمُلة ، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر ، فما مات حتى انصدع صدره عن (٨) قلبه فيما يزعمون .

وذكر مقاتل بن سليمان : أن قريشاً أصابوا مالاً جزيلاً من أسلابهم ،وما كان معهم ، وأن عبد المطلب أصاب يومئذ من الذهب ما ملأ حفرة .

---

(١) فى م : « الغالب » .
(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٣) وتفسير الطبرى (٣٠/ ١٩٦) .
(٣) زيادة من م ، أ . (٤) فى م ، أ : « فيهم » . (٥) زيادة من م ، أ .
(٦) فى أ : « فخشع » . (٧) فى م : « كل سهل » . (٨) فى أ : « من » .

وقال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عُتْبَة : أنه حدث [١] أن أول ما رؤيت الحَصبة والجُدرى بأرض العرب ذلك العام ، وأنه أول ما رؤى به مَرائر الشجر الحَرْمل ، والحنظل والعُشر ، ذلك العام[٢] .

وهكذا روى عن عكرمة ، من طريق جيد .

قال ابن إسحاق : فلما بعث الله محمدا ﷺ كان فيما يَعُد به على قريش من نعْمَته [٣] عليهم وفضله ، ما رَدّ عنهم من أمر الحبشة ،لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾ . ﴿ **لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ . إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ . فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ . الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ** ﴾ [سورة قريش] أى : لئلا يغير شيئاً من حالهم التى كانوا عليها ، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه .

قال ابن هشام : الأبابيل الجماعات ، ولم تتكلم العرب بواحدة . قال : وأما السجيل ، فأخبرنى يونس النحوى وأبو عبيدة أنه عند العرب : الشديد الصلب . قال : وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية ، جعلتهما العرب كلمة واحدة ، وإنما هو سَنْج وجل يعنى بالسنج : الحجر ،والجِل : الطين. يقول : الحجارة من هذين الجنسين : الحجر والطين .قال: والعصفُ : ورقُ الزرع الذى لم يُقضب، واحدته عصفه . انتهى ما ذكره [٤] .

وقد قال حماد بن سلمة : عن عاصم، عن زر، عن عبد الله ـ وأبو سلمة بن عبد الرحمن ـ: ﴿ **طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴾ قال : الفرق [٥] .

وقال ابن عباس ، والضحاك : أبابيل يتبع بعضها بعضاً . وقال الحسن البصرى ، وقتادة : الأبابيل : الكثيرة . وقال مجاهد : أبابيلُ : شتى متتابعة مجتمعة . وقال ابن زيد : الأبابيل : المختلفة، تأتى من هاهنا ، ومن هاهنا ، أتتهم من كل مكان .

وقال الكسائى : سمعت [النحويين يقولون: أَبُول مثل العجول . قال : وقد سمعت] [٦] بعض النحويين يقول : واحد الأبابيل : إبيل .

وقال ابن جرير : [حدثنا ابن المثنى] [٧] ، حدثنى عبد الأعلى ، حدثنى داود ، عن إسحاق بن عبد الله بن الحارث بن نوفل ؛ أنه قال فى قوله : ﴿ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴾ هى : الأقاطيع ، كالإبل المؤبلة .

---

(١) فى أ : « أنه حدثه » .

(٢) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٤) .

(٣) فى أ : « من بعثه » .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٥) .

(٥) فى أ : « الغرق » .

(٦، ٧) زيادة من تفسير الطبرى (٣٠/ ١٩١) .

وحدثنا أبو كُرَيْب ، حدثنا وَكيع ، عن ابن عون ، عن ابن سيرين ، عن ابن عباس : ﴿ **وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴾ قال : لها خراطيم كخراطيم الطير ، وأكف كأكف الكلاب .

وحدثنا يعقوب ، حدثنا هُشَيْم ، أخبرنا حصين عن عكرمة فى قوله : ﴿ **طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴾ قال : كانت طيراً خضرا خرجت من البحر ، لها رؤوس كرؤوس السباع .

وحدثنا ابن بشار ، حدثنا ابن مهدى ، عن سفيان ، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن عبيد ابن عمير : ﴿ **طَيْرًا أَبَابِيلَ** ﴾ قال : هى طير [1] سود بحرية ، فى منقارها [2] وأظافيرها الحجارة .

وهذه أسانيد صحيحة .

وقال سعيد بن جبير : كانت طيراً خضرا لها مناقير صفر ، تختلف عليهم .

وعن ابن عباس ، ومجاهد ، وعطاء : كانت الطير الأبابيل مثل التى يقال لها عنقاء مُغْرب . رواه عنهم ابن أبى حاتم .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا عبد الله بن محمد بن أبى شيبة ، حدثنا أبو معاوية، عن الأعمش ، عن أبى سفيان ، عن عبيد بن عمير ، قال : لما أراد الله أن يهلك أصحاب الفيل ، بعث عليهم طيراً أنشئت من البحر ، أمثال الخطاطيف . كل طير منها تحمل ثلاثة أحجار مُجَزعة : حجرين فى رجليه وحجراً فى منقاره . قال : فجاءت حتى صفت على رؤوسهم ، ثم صاحت وألقت ما فى أرجلها ومناقيرها ، فما يقع حجر على رأس رجل إلا خرج من دبره ، ولا يقع على شىء من جسده إلا وخرج من الجانب الآخر . وبعث الله ريحاً شديدة فضربت الحجارة فزادتها شدة فأهلكوا جميعاً .

وقال السُّدِّى ، عن عكرمة ، عن ابن عباس : ﴿ **حِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ** ﴾ قال : طين فى حجارة : «سَنْك ــ وكل » وقد قدمنا بيان ذلك بما أغنى عن إعادته هاهنا .

وقوله : ﴿ **فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾ : قال سعيد بن جبير : يعنى التبن الذى تسميه العامة : هبور . وفى رواية عن سعيد : ورق الحنطة . وعنه أيضاً : العصف : التبن . والمأكول : القصيل يجز للدواب . وكذلك قال الحسن البصرى .

وعن ابن عباس : العصف : القشرة التى على الحبة ، كالغلاف على الحنطة .

وقال ابن زيد : العصف : ورق الزرع ، وورق البقل ، إذا أكلته البهائم فراثته ، فصار دَرِينا [3] .

والمعنى : أن الله ، سبحانه وتعالى ، أهلكهم ودمرهم ، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيراً، وأهلك عامتهم ، ولم يرجع منهم بخير إلا وهو جريح ، كما جرى لملكهم أبرهة ، فإنه انصدع صَدْرُه عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء ، وأخبرهم بها [4] جرى لهم ، ثم مات. فملك بعده ابنه

---

(١) فى م : « هى طيور » . (٢) فى أ : « فى مناقيرها » . (٣) فى م : « دوثاً ».
(٤) فى م : « بما » .

يكسُوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة[١] . ثم خرج سيف بن ذى يَزَن الحميرى إلى كسرى فاستغاثه [٢] على الحبشة ، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه ، فرد الله إليهم ملكهم ، وما كان فى آبائهم من الملك ، وجاءته وفود العرب للتهنئة .

وقد قال محمد بن إسحاق : حدثنا عبد الله بن أبى بكر ، عن عمرة بنت عبد الرحمن بن أسعد ابن زرارة ، عن عائشة قالت : لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مُقعَدَين ، يستطعمان [٣] . ورواه الواقدى ، عن عائشة مثله . ورواه أيضا عن أسماء بنت أبى بكر أنها قالت : كانا مقعدين يستطعمان الناس ، عند إساف ونائلة، حيث يذبح المشركون ذبائحهم .

قلت : كان اسم قائد الفيل : أنيساً .

وقد ذكر الحافظ أبو نعيم فى كتاب « دلائل النبوة » من طريق ابن وهب ، عن ابن لَهِيعة عن عقيل بن خالد ، عن عثمان بن المغيرة قصة أصحاب الفيل ،ولم يذكر أن أبرهة قدم من اليمن ، وإنما بعث على الجيش رجلاً يقال له :شمر بن مفصود ، وكان الجيش عشرين ألفاً ، وذكر أن الطير طرقتهم ليلاً ، فأصبحوا صرعى .

وهذا السياق غريب جداً ، وإن كان أبو نُعيْم قد قواه ورَجحه على غيره . والصحيح أن أبرهة الأشرم الحبشى قدم مكة كما دل على ذلك السياقات والأشعار . وهكذا روى ابن لَهِيعة ، عن الأسود، عن عُرْوَة : أن أبرهة بعث الأسود بن مفصود على كتيبة معهم الفيل ، ولم يذكر قدوم أبرهة نفسه ، والصحيح قدومه ، ولعل ابن مفصود كان على مقدمة الجيش ، والله أعلم .

ثم ذكر ابن إسحاق شيئاً من أشعار العرب ،فيما كان من قصة أصحاب الفيل ، فمن ذلك شعر عبد الله بن الزبعرى :

تَنَكَّلُوا عن بطن مكَّةَ إنها ... كانتْ قديماً لا يُرام حَرِيمها
لم تُخلَق الشِّعرَى ليالى حُرِّمتْ ... إذ لا عزيزَ من الأنام يَرُومها
سائل أميرَ الجيش عنها ما رأى؟ ... فلسوفَ يُنبى الجاهلين عليمها
ستونَ ألفاً لم يَؤُوبوا أرضَهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها
كانتْ بها عادٌ وجُرْهُم قبلهم ... واللهُ من فوق العباد يُقيمها[٤]

وقال أبو قيس[٥] بن الأسلت الأنصارى المرى [٦]:

---

(١) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٦١،٦٢) .
(٢) فى م : « فاستعانه » .
(٣) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٧) .
(٤) انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٥٨) .
(٥) فى م : « أبو القيس » .
(٦) فى م ، أ : « المدنى » .

ومن صُنْعه يوم فيل الحُبُو ش ، إذ كل ما بَعَثُوه رَزَمْ
محاجنهم تحت أقرابه وقد شَرَموا أنفه فانخرم
وقد جعلوا سوطه مغولاً إذا يَمَّمُوه قَفَاه كُلِم
فَسوَّل[1] أدبر أدراجه وقد باء بالظلم من كان ثَمَّ
فأرسل من فوقهم حاصباً يَلُفهُم مثْلَ لَفُ القزُم
تحث على الصَّبر أحبارُهم وَقَد ثأجُوا كَثُؤاج الغَنَم

وقال أبو الصلت بن أبى ربيعة الثقفى ، ويروى لأمية بن أبى الصلت بن أبى ربيعة :

إن آيات رَبِّنا بَاقياتٌ مَا يُمَارى فيهنَّ إلا الكفورُ
خُلِقَ الليلُ والنهارُ فَكُلٌّ مستبينٌ حسابُه مَقْدُورُ
ثم يجلو النَّهارَ ربٌّ رحيمٌ بمهاة شُعَاعها منشورُ
حُبِسَ الفيلُ بالمغَمَّس حَتَى صار يَحْبُو ، كأنه معقورُ
لازماً حَلقُه الجرانَ كما قُطِّر من ظَهْر كَبْكَب مَحدُورُ
حَوله من مُلُوك كندَةَ أبطالُ مَلاويثُ فى الحُرُوب صُقُورُ
خَلَّفُوه ثم ابذَعرّوا جَميعاً، كُلُّهم عَظْمُ ساقه مكْسُورُ
كُلّ دين يومَ القِيَامَة عندَ الـ ـله إلا دِينُ الحَنيفَة بورُ

وقد قدمنا فى تفسير « سورة الفتح » أن رسول الله ﷺ لما أطل يوم الحديبية على الثنية التى تهبط به على قريش ، بركت ناقته ، فزجروها فألحَّت ، فقالوا : خلأت القصواء ، أى : حَرَنت . فقال رسول الله ﷺ : « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل » ثم قال: « والذى نفسى بيده ، لا يسألونى اليوم خطة يُعَظمون فيها حُرُمات الله ، إلا أجبتهم إليها » . ثم زجرها فقامت . والحديث من أفراد البخارى [2] .

وفى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح مكة : « إن الله حبس عن مكة الفيل ، وسلَّط عليها رسوله والمؤمنين ، وإنه قد عادت حُرمَتُها اليوم كحرمتها بالأمس ، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»[3] .

آخر تفسير سورة « الفيل »

---

(١) فى م ، أ : « فولى و » .

(٢) تقدم تخريج هذا الحديث عند تفسير الآية : ٢٦ من سورة الفتح ، وهو فى صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) .

(٣) صحيح البخارى برقم (١١٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٥) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

سورة الفيل

مكّيّة، وهي خمس آياتٍ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ الخِطاب لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، و"الهمزة" لتقرير رؤيته عليه السلام بإنكار عدمها، و﴿كَيۡفَ﴾ معلِّقة لفعل الرؤية منصوبة بما بعدها، والرؤية عِلميّة، أي: ألم تعلم عِلمًا رصينًا متاخمًا للمشاهدة والعِيان باستماع الأخبار المتواترة ومعاينة الآثار الظاهرة. وتعليقُ الرؤية بكيفيّة فعله عزّ وجلّ لا بنفسه، بأن يقال: ألم ترَ ما فعل / ربّك... إلخ، لتهويل [٣٢٠و] الحادثة، والإيذان بوقوعها على كيفيّة هائلة، وهيئة عجيبة دالّة على عظيم قدرة الله تعالى، وكمالِ علمه وحِكمته، وعزّةِ بيته، وشرفِ رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

فإنّ ذلك مِن الإرهاصات، لِما رُوي أنّ القصّة وقعت في السَّنة التي وُلد فيها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم. وتفصيلُها أنّ أبرهةَ بن الصبّاح الأشرم[١] مَلِك اليمن مِن قبل أصحمةَ النجاشي[٢] بنى بصنعاءَ كنيسةً وسمّاها القُلَّيس، وأراد أن يصرِف إليها الحاجّ، فخرج رجل مِن كنانةَ فقعد فيها ليلًا فأغضبه ذلك. وقيل:

١ أبو يكسوم أبرهة الأشرم الحبشي (ت. ٥٧٠م [؟])، هو أوّل ملك مِن الحبشة افتتح اليمن وملكها، وهو الذي أراد هدم البيت. أنظر: التيجان للحميري، ص ٣١٤.

٢ النجاشي لقب كلّ ملك مِن ملوك الحبشة، ولعلّ أمير أبرهة المذكور ليس أصحمة النجاشي، بل نجاشي قبله، وأصحمة النجاشي معدودٌ في الصحابة رضي الله عنهم، وكان ممّن حسُن إسلامه، وقصّته مشهورة في المغازي بإحسانه إلى المسلمين الذين هاجروا إليه في صدر الإسلام. مات في عصر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فصلّى عليه بالناس صلاة الغائب. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٢٨/١؛ والإصابة لابن حجر، ٢٠٥/١.

أجَّجت رُفقة مِن العرب نارًا فحملتها الريح فأحرقَتها، فحلف ليهدمنّ الكعبةَ، فخرج مع الحبشة ومعه فيل له اسمه محمود- وكان قويًا عظيمًا- واثنا عشرَ فيلًا غيره، وقيل: ثمانية، وقيل: ألف فيل، وقيل: كان معه وحدَه. فلمّا بلغ المُغمَّس[١] خرج إليه عبد المطّلب، وعَرَض عليه ثلث أموال تهامةَ ليَرجع فأبى. وعبّأ جيشه، وقدّم الفيلَ، فكان كلّما وجّهوه إلى الحرَم برك ولم يبرح، وإذا وجّهوه إلى اليمن أو إلى غيره مِن الجهات هرول.

فأرسل الله تعالى طيرًا سُودًا، وقيل: خضرًا، وقيل: بيضًا، مع كلّ طائر حَجَر في مِنقاره، وحجران في رجليه، أكبر مِن العدسة وأصغر مِن الحمّصة، فكان الحَجَر يقع على رأس الرجل ويخرج مِن دبره، وعلى كلّ حجر اسم مَن يقع عليه، ففرّوا فهَلَكوا في كلّ طريق ومنهل. ودَوِيَ أبرهةُ فتساقطت أنامله وآرابه وما مات حتّى انصدع صدره عن قلبه، وانفلت وزيره أبو يكسوم وطائر يُحلِّق فوقه حتّى بلغ النجاشيَّ فقصّ عليه القصّة، فلمّا أتمّها وَقَع عليه الحَجَر فخرّ ميّتًا بين يديه.[٢]

وقيل: إنّ أبرهة أخذ لعبد المطّلب مائتي بعير، فخرج إليه في شأنها، فلمّا رآه أبرهةُ عظُم في عينه، وكان رجلًا وسيمًا جسيمًا، وقيل: هذا سيِّد قريش، وصاحب عِير مكّة الذي يُطعم الناس في السهل والوحوش في رءوس الجبال، فنزل أبرهةُ عن سريره وجلس على بساطه، وقيل: أجلسه معه على سريره، ثم قال لترجمانه: «قل له: ما حاجتُك؟» فلمّا ذَكَر حاجته قال: «سقطتَ مِن عيني حيث جئتُ لأهدمَ البيت الذي هو دينك ودين آبائك وعصمتُكم وشرفُكم في / قديم [٣٢٠ظ] الدهر، لا تكلِّمني فيه، ألهاك عنه ذَودٌ أخذتُ لك». فقال عبد المطّلب: «أنا ربّ الإبل، وإنّ للبيت ربًّا يحميه»، ثم رجع وأتى باب الكعبة فأخذ بحلقته ومعه نفر مِن قريش يدعون الله عزّ وجلّ، فالتفت وهو يدعو، فإذ هو بطيرٍ مِن نحو اليمن،

---

[١] المُغمَّس: موضع قربَ مكّة في طريق الطائف. معجم البلدان للحمَوي، ١٦١/٥.

[٢] الخبر بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤؛ وهو بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٥٣٥/٨-٥٣٨.

فقال: «والله إنّها لَطير غريبة، ما هي ببحريّة ولا تِهاميّة»، فأرسل حلقة الباب، ثمّ انطلق مع أصحابه ينتظرون ما يفعل أبرهةُ، فأرسل الله تعالى عليهم الطير، فكان ما كان.[١]

وقيل: كان أبرهةُ جدَّ النجاشي الذي كان في زمن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٢] وعن عائشةَ رضي الله عنها: رأيتُ قائد الفيل وسائسه أعميين مُقعَدين يستطعمان.[٣] وقُرئ: "أَلَمْ تَرْ" بسكون "الراء"[٤] للجدّ في إظهار أثر الجازم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾... إلخ، بيانٌ إجمالي لِما فعل الله تعالى بهم، و"الهمزة" للتقرير كما سبق، ولذلك عُطف على الجملة الاستفهاميّة ما بعدها، كأنّه قيل: قد جُعل كيدهم في تعطيل الكعبة وتخريبها في تضييع وإبطال، بأن دمّرهم أشنعَ تدمير.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ أي: حزائقَ وجماعاتٍ، جمع "إبّالة"، وهي الحزمة الكبيرة شُبّهت بها الجماعة مِن الطير في تضامّها، وقيل: ﴿أَبَابِيلَ﴾ مثل "عبابيد" و"شماطيط"، لا واحدَ لها.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ صفة لـ﴿طَيْرًا﴾. وقُرئ: "يَرْمِيهِمْ"[٥] بالتذكير؛ لأنّ الطير اسم جمع وتأنيثه باعتبار المعنى. ﴿مِن سِجِّيلٍ﴾ مِن طين متحجِّر، معرّب "سنك كل".[٦] وقيل: كأنّه عَلَم للديوان الذي كُتب فيه عذاب الكفّار، كما أنّ سِجّينًا عَلَم للديوان الذي يكتب فيه أعمالهم، كأنّه قيل: بحجارة مِن جملة العذاب المكتوب المدوّن. واشتقاقه مِن الإسجال وهو الإرسال.[٧]

---

١ القول بلفظ قريب في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤-٦٠٥؛ وهو بمعناه في معالم التنزيل للبغوي، ٥٣٦/٨-٥٣٧.

٢ القول بلفظه في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤.

٣ بلفظ قريب في أخبار مكّة للأزرقي، ١٤٨/١-١٤٩؛ ومسند البزّار، ٢٥٧/١٨ (٣٠٠)؛ والكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٣/٣٠؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٤/٤.

٤ قراءة شاذّة، مرويّة عن السُلمي. المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٥٧.

٥ قراءة شاذّة، مرويّة عن عيسى بن عمر ويحيى بن يعمر وأبي نهيك وأبي حنيفة، وابن المغيرة وابن واصل وابن منصور والفارسي أربعتهم عن الكسائي. شواذّ القرآن لابن خالويه، ص ١٨٠؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٩٥٨.

٦ انظر: جامع البيان للطبري، ٦٣٣/٢٤؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٥/٤. و"سنك كل" معناها بالفارسيّة: الحجر والطين. انظر لتفصيل الكلام عليه والأقوال فيه: المُعرَّب للجواليقي، ص ٣٦٤-٣٦٦، وحواشي مُحقّقه.

٧ القول في الكشّاف للزمخشري، ٦٠٥/٤.

﴿فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ كورق زرع وقع فيه الأُكَال، وهو أن يأكله الدُّود، أو أُكل حبُّه فبقيَ صِفرًا منه، أو كتِبْنٍ أكلته الدوابّ وراثَتْه، أشيرَ بأولّ حاله.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الفيل أعفاه الله تعالى أيّام حياته مِن الخسف والمسخ».[1]

---

١ بلفظ قريب في الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٥/٣٠ (الفيل، ١٠٥/١)؛ والتفسير الوسيط للواحدي، ٥٥٤/٤ (الفيل، ١٠٥/١)؛ والكشّاف للزمخشري، ٦٠٥/٤. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ٢٤٠/١.

سُورَةُ الفِيلِ

مكيةٌ، وآيُها خمس بلا خلاف فيهما.

وكأنَّه لَمَّا تضمَّن الهمز واللمز من الكفرة نوعَ كيدٍ له عليه الصلاة والسلام عقَّب ذلك بقصة أصحاب الفيل للإشارة إلى أنَّ عقبَى كيدهم في الدنيا تدميرُهم، فإنَّ عنايةَ الله عز وجل برسوله ﷺ أقوى وأتمُّ من عنايته سبحانه بالبيت، فالسورةُ مشيرةٌ إلى مآلهم في الدنيا إثْرَ بيان مآلهم في الأخرى.

ويجوز أن تكونَ كالاستدلال على ما أُشيرَ إليه فيما قبلها من أنَّ المالَ لا يُغني من الله تعالى شيئاً، أو على قدرته عز وجل على إنفاذ ما توعَّد به أولئك الكفرةَ في قوله سبحانه: (لَيُنۢبَذَنَّ فِي ٱلۡحُطَمَةِ) إلخ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾ الظاهرُ أنَّ الخطاب لرسول الله ﷺ، والهمزة لتقرير رؤيته عليه الصلاة والسلام بإنكار عدمها، وهي بصرية تُجوِّز بها عن العلم على سبيل الاستعارة التبعية أو المجاز المرسل لأنَّها سببيَّة، ويجوز جعلُها علميةً من أول الأمر، إلا أنَّ ذاك أبلغُ، وعِلْمُه ﷺ بذلك لِمَا أنَّه سمعَه متواتراً.

و«كيف» في محلٍّ نصب على المصدرية بـ «فَعَل»، والمعنى: أيَّ فِعْلٍ فَعَل. وقيل: على الحالية من الفاعل، والكيفية حقيقة للفعل، لا بـ «ألم تَرَ» لمكان الاستفهام، والجملةُ سادَّةٌ مسدَّ المفعولَين لـ «تَرَ».

وجوّز بعضُهم نصبَ «كيف» بـ «ترَ» لانسلاخ معنى الاستفهام عنه كما في «شرح المفتاح» الشريفي، وصرَّح أبو حيان بامتناعه لأنَّه يراعَى صدارتُه إبقاءً لحكم أصله.

وتعليقُ الرؤية بكيفيَّة فعله تعالى شأنه، لا بنفسه بأنْ يقال: ألم ترَ ما فعل ربك.. إلخ لتهويل الحادثةِ، والإيذانِ بوقوعها على كيفيَّة هائلةٍ، وهيئة عجيبةٍ دالَّةٍ على عِظَم[1] قدرة الله تعالى، وكمالِ علمه وحكمته، وعِزِّ بيته[2]، وشرفِ رسوله ﷺ، فإنَّ ذلك ـ كما قال غيرُ واحد ـ من الإرهاصات؛ لِمَا روي أنَّ القصة وقعَت في السنة التي ولد فيها النبيُّ ﷺ[3]. قال إبراهيم بن المنذر شيخُ البخاري: لا يَشُكُّ في ذلك أحدٌ من العلماء، وعليه الإجماعُ، وكلُّ ما خالفه وهمٌ، أي: من أنَّها كانت قبلُ بعشر سنينَ، أو بخمسَ عشرةَ سنةً، أو بثلاثٍ وعشرينَ سنة، أو بثلاثين سنة، أو بأربعين سنة، أو بسبعين سنة، الأقوال المذكورة في كتب السِّيَر.

وعلى الأول المرجَّحِ الذي عليه الجمهور قيل: ولادتُه عليه الصلاة والسلام في اليوم الذي بَعَث الله تعالى فيه الطيرَ على أصحاب الفيل من ذلك العام، وهو المذكورُ في تاريخ ابن حبان[4]، وهو ظاهرُ قولِ ابن عباس: ولد عليه الصلاة والسلام يومَ الفيل[5].

وذهب السهيلي أنَّه ﷺ وُلد بعدها بخمسين يوماً، وكانت[6] في المحرَّم، والولادةُ في شهر ربيع الأول[7].

وقال الحافظ الدمياطي: بخمسةٍ وخمسين يوماً. وقيل: بأربعين. وقيل: بشهر. والمشهور ما ذهب إليه السهيلي.

---

(١) في الأصل: عظيم.
(٢) تصحف في (م) إلى: غُريبته.
(٣) جاء في هامش الأصل: وذلك بعد مضي ستة آلاف سنة من هبوط آدم عليه السلام. اهـ منه.
(٤) وهو كتاب الثقات له، والكلام فيه ١/ ١٤.
(٥) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ١٠١، وزاد: يعني عام الفيل.
(٦) أي: حادثة الفيل.
(٧) الروض الأنف ١/ ١٨٤.

وفي قوله تعالى: (رَبُّكَ) نوعُ رمزٍ إلى الإرهاص. وكونُ ذلك لشرفِ البيت ودعوةِ الخليل عليه السلام لا ينافي الإرهاصَ، وكذا لا ينافيه قولُه ﷺ في الحديبية لَمَّا بركَت ناقتُه، وقال الناس: خلأَت، أي: حَرَنَت: «ما خلأَت، ولكنْ حَبَسها حابسُ الفيل»[(١)]، إذ لم يُدَّعَ أنَّ ما كان للإرهاص لا غير، ومثلُ هذه العلل لا يضرُّ تعدُّدها، ويُؤيِّد الإرهاصَ قصةُ القرامطة وغيرهم.

وتفصيل القصة: أنَّ أَبْرهةَ الأشرم بن الصَّبَّاح الحبشي، كما قال ابن إسحاق وغيرُه[(٢)]، وهو الذي يُكْنَى بأبي يَكسوم بالسين المهملة[(٣)]، ولا يأباه التسمية بأبرهة بناءً على أنَّ معناه بالحبشية الأبيضُ الوجهِ كما لا يخفى، وقيل: إنَّه الحِمْيري = خرجَ على أرياط ملك اليمن من قِبَلِ أصحمة النِّجاشي بكسر النون بعد سنَتين من سلطانه، فتبارَزَا، وقد أرصَدَ الأشرمُ خلفَه غلامَه عَتْوَدة[(٤)]، فحمل عليه أرياط بحربة فضَرَبه يريدُ يافوخَه، فوقعت على جبهته فشَرَمَت حاجبَه وأنفَه وعينَه وشَفَتَه، ولذا سُمِّي الأشرم، فحمل عَتْوَدة من خلف أبرهة فقتَلَه وملك مكانه، فغَضِب النجاشيُّ، فاسترضاه فرضي فأثبَتَه.

ثم إنَّه بَنَى بصنعاء كنيسةً لم يُرَ مثلُها في زمانها سمَّاها القُلَّيس بقافٍ مضمومةٍ ولامٍ مفتوحةٍ مشدَّدةٍ كما في «ديوان الأدب»[(٥)] أو مخفَّفةً كما قيل، وبعدَها ياء مثناة سفلية ثم سين مهملة، وكان ينقل إليها الرُّخامَ المُجزَّع والحجارة المنقوشة

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٩٢٨)، والبخاري (٢٧٣١) و(٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم رضي الله عنهما.

(٢) السير والمغازي ص٦١ وما بعد، والسيرة النبوية ١/ ٤١ وما بعد، وتنظر قصة الفيل في تفسير الطبري ٢٤/ ٦٣٥ وما بعد، وفي تاريخه ٢/ ١٢٨ وما بعد، والقرطبي ٢٢/ ٤٧٨ وما بعد، وتاريخ ابن كثير ٣/ ١٣٧ وما بعد.

(٣) جاء في هامش الأصل: ويقال: إنه جد النجاشي الذي كان في زمانه عليه الصلاة والسلام. اهـ منه، ونسَب القولَ القرطبيُّ في تفسيره ٢٢/ ٤٨٥ للواقدي.

(٤) في الأصل و(م): عتورة، والمثبت من المصادر، والعتودة: الشدة. الروض الأنف ١/ ٦٢.

(٥) كتاب في اللغة لإسحاق بن إبراهيم الفارابي المتوفى تقريباً سنة (٣٥٠هـ). وهو كتاب معتبر، قسمه على خمسة أقسام، عرّفه بقوله: هو ميزان اللغة ومعيار الكلام. كشف الظنون ١/ ٧٧٤-٧٧٥، والأعلام ١/ ٢٩٣.

بالذهب ـ على ما يقال ـ من قَصْر بلقيسَ زوجِ سليمان عليه السلام، وكتب إلى النجاشي: إنِّي قد بنَيت لك أيُّها الملك كنيسةً لم يُبنَ مثلُها قبلك، ولستُ بمنتهٍ حتى أصرفَ إليها حجَّ العرب.

فلما تحدَّثَت العربُ بكتابه ذلك غضب رجلٌ من النَّسَأة أحدُ بني فُقَيم بن عدي من كنانةَ، فخرج حتى أتاها فقعَدَ فيها ـ أي: أحدَثَ ولطخ قبلَتها بحدَثه ـ ثم خرج ولَحِقَ بأرضه، فأُخبِرَ أبرهةُ فقال: مَن صنع هذا؟ فقيل: رجلٌ من أهل هذا البيت الذي تحجُّ إليه العرب بمكةَ، غَضِبَ لَمَّا سمع قولَك: أصرفُ إليها حجَّ العرب، ففعل ذلك. فاستشاط أبرهةُ غضباً، وحلَفَ ليَسيرَنَّ إلى البيت حتى يهدِمَه.

وقيل: أَجَّجَت رفقةٌ من العرب ناراً حولها، فحملتها الريحُ فأحرَقَتها(١).

فغضِب لذلك فأمرَ الحبشةَ فتهيَّأت وتجهَّزَت، فخرجت في ستين ألفاً ـ على ما قيل ـ منهم، ومعه فيلٌ اسمه محمود، وكان قويًّا عظيماً، واثنا عشر فيلاً غيره. وقيل: ثمانيةً. وروي ذلك عن الضحاك. وقيل: ألف فيل، وقيل: معه محمود فقط. وهو قولُ الأكثرين الأوفقُ بظاهر الآية، فسمعَت العربُ بذلك فأعظموه وقلقوا به، ورأَوا جهادَه حقًّا عليهم، فخرج إليه رجلٌ من أشراف اليمن وملوكهم يقال له: ذو نَفْر، بمن أطاعَه من قومه وسائر العرب، فقاتَله فهُزِمَ وأُخِذ أسيراً، فأراد قتلَه فقال: أيها الملك لا تقتلني فعسى أنْ يكونَ بقائي معك خيراً لك من قتلي، فتركه وحبسه عنده.

حتى إذا كان بأرض خَثْعَم عرَضَ له نُفَيْل بن حبيب الخَثْعَمي بمن معه من قومه وغيرهم، فقاتله فهُزِم وأُخِذ أسيراً، فهمَّ بقتله فقال نحوَ ما سبق فخلَّى سبيله، وخرَجَ به يدلُّه.

حتى إذا مرَّ بالطائف خرج إليه مسعودُ بن مُعَتِّب(٢) بن مالك الثَّقَفي في رجال من ثَقيف فقال له: أيها الملكُ إنما نحن عبيدُك سمَّاعون لك مطيعون، ليس لك

---

(١) عزاه القرطبي ٢٢/ ٤٨٤ للكلبي ومقاتل بن حيان بنحوه.

(٢) في الأصل و(م): معيب، والمثبت من المصادر.

عندنا خلاف، وليس بيتُنا هذا الذي تريد، يعنون بيت اللات، إنما تريدُ البيت الذي بمكة، ونحن نبعَثُ معك من يدلُّك عليه، فتجاوَزَ عنهم، فبعثُوا معه أبا رِغال[١]، فخرج ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمَّس كمعظَّم، موضعٌ بطريق الطائف معروف، فلمَّا نَزَلَه ماتَ أبو رِغال ودُفِنَ هناك، فرجَمَت قبرَه العربُ كما قال ابن إسحاق[٢].

وقيل: القبرُ الذي هناك لأبي رِغال رجل من ثمود، وهو أبو ثقيف، كان بالحرم يَدفَعُ عنه، فلمَّا خرج منه أصابته النقمة التي أصابت قومَه بالمغمَّس فدُفِن فيه، واختارَه صاحب «القاموس» ذاكراً فيه حديثاً رواه أبو داود في «سننه» وغيرُه عن ابن عمر[٣] مرفوعاً، وقال فيما تقدَّم بعد نَقْلِه عن الجوهري[٤]: ليس بجيد.

وجمع بعضٌ بجواز أنِ يكون قبران لرجلَين كلٌّ منهما أبو رغال[٥].

ثم إنَّ أبرهة بَعثَ وهو بالمغمَّس رجلاً من الحبشة يقال له الأسود بن مقصود حتى انتهى إلى مكة، فساقَ أموالَ أهل تهامة من قريش وغيرهم، وأصاب فيها مئتَي بعير؛ وقيل: أربع مئة بعير، لعبد المطلب وكان يومئذ سيدَ قريش، فهمَّت قريش وكِنانة وهُذَيل ومَن كان بالحرم بحربه، فعرفوا أنْ لا طاقةَ لهم به فكفُّوا.

وبعث أبرهةُ حياطة[٦] الحميري إلى مكة وقال: قل لسيد أهلِ هذا البلدِ إنَّ الملكَ يقول: إنِّي لم آت لحربكم، إنَّما جئتُ لهدم هذا البيت، فإنْ لم تعرضُوا دونه بحرب فلا حاجةَ لي بدمائكم، فإنْ هو لم يُرد حربي فأتني به. فلمَّا دخل حياطةُ دُلَّ على عبد المطلب فقال له ما أُمِرَ به، فقال عبد المطلب: والله ما نريد حربَه وما لنا

---

(١) جاء في هامش الأصل: بالغين المعجمة بوزن كتاب. اهـ منه.

(٢) السيرة النبوية ١/ ٤٨.

(٣) كذا في الأصل و(م)، والقاموس (رغل). والذي في سنن أبي داود (٣٠٨٣)، ودلائل النبوة للبيهقي ٦/ ٢٩٧: ابن عمرو، وهو الصواب. ينظر تحفة الأشراف ٦/ ٢٨١.

(٤) في الصحاح (رغل).

(٥) تاريخ ابن كثير ٣/ ١٤٣.

(٦) كذا في الأصل و(م)، والذي في المصادر: حناطة.

به طاقة، هذا بيتُ الله الحرام وبيتُ خليله إبراهيم عليه السلام، فإنْ يمنَعْهُ منه فهو بيتُه وحرمُه، وإنْ يُخلِّ بينه وبينه فوالله ما عندنا دفْعٌ عنه.

ثم انطلَق معه عبد المطلب ومعه بعضُ بَنِيْه حتى أتى العسكر، فسأل عن ذي نَفْر، وكان صديقَه، فدخل عليه فقال له: هل عندك من غَنَاءٍ فيما نزل بنا؟ فقال: وما غَناءُ رجل أسيرٍ بيدَي ملك، ينتظر أنْ يقتلَه غُدُوًّا وعَشيًّا، ما عندي غَنَاءٌ في شيء مما نزل بك إلا أنَّ أُنيساً سائسَ الفيل سأُرسِل إليه فأُوصيه بك وأُعْظِمُ عليه حقَّك، وأسألُه أنْ يستأذنَ لك على الملك فتكلِّمه بما بدا لك، ويشفَعَ لك عنده بخيرٍ إنْ قَدَر على ذلك. فقال: حسبي. فبعَثَ إليه فقال له: إنَّ عبد المطلب سيدُ قريش وصاحبُ عين[1] مكة، ويُطعمُ الناس بالسهل، والوحوشَ في رؤوس الجبال، وقد أصاب الملكُ له مئتَي بعير، فاستأذِنْ له عليه وانفَعْه عنده بما استطعتَ. فقال: أفعلُ. فكلَّم أبرهةَ وَوَصَف عبد المطلب بما وصفه به ذو نفر، فأَذِنَ له.

وكان عبد المطلب أوسمَ الناس وأجملَهم، فلما رآه أكرَمه عن أنْ يجلسَ تحته، وكره أنْ تراه الحبشةُ يُجلسُه معه على سرير ملكه، فنزل عن سريره فجلَس على بساطه وأجلَسَه معه عليه إلى جنبه.

والقولُ بأنَّه أعظمَه لِمَا رأى من نور النبوَّة الذي كان في وجهه[2] ضعيفٌ، لِمَا فيه من الدلالة على كون القصة قبلَ ولادة عبد الله، وهو خلافُ ما علمتَ من القول المرجَّح، اللهم إلا أنْ يقال إنَّه تجلَّى فيه ذلك النور، وإنْ كان قد انتقَلَ.

ثم قال لترجمانه: قل له: ما حاجتُك؟ فقال: حاجتي أن يردَّ عليَّ الملك إبلي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: قد كنتَ أعجبتَني حين رأيتُك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتَني في مئتَي بعير أصبتُها لك، وتَترُك بيتاً هو دينُك ودينُ آبائك قد جئتُ

---

(١) كذا في الأصل و(م)، وتفسير القرطبي ٢٢/ ٤٨٠، وسبل الهدى والرشاد ١/ ٢٥٢، وفي تاريخ الطبري ٢/ ١٣٣، وتفسيره ٢٤/ ٦٣٩، والسيرة النبوية ١/ ٤٩، وتاريخ ابن كثير ٣/ ١٤٤: عير.

(٢) ينظر سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد ١/ ٢٥٣.

لهدمه فلا تكلِّمني فيه. فقال عبد المطلب: إني ربُّ الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه. قال: ما كان ليُمنَع منِّي. قال: أنت وذاك.

وفي رواية: أنَّه دخل عليه مع عبد المطلب [يعمر بن] نفاثة[1] بن عدي سيِّد بني بكر، وخويلد بن واثلة سيِّد هذيل، فعرضا عليه ثلثَ أموالِ أهل تهامة على أنْ يرجعَ ولا يهدم البيت فأبَى.

فردَّ الإبل على عبد المطلب، فانصرف إلى قريش فأخبرهم الخبرَ، فتحرَّزوا في شَعَف الجبال تخوُّفاً من معرَّة الجيش[2]، ثم قام فأخذ بحلْقة باب الكعبة ومعه نَفَرٌ من قريش يدعون الله عز وجل ويستنصرونه، فقال وهو آخذٌ بالحلقة:

لاهُمَّ إنَّ المرءَ يمـ	ـنع رَحْلَهُ فامنع حِلالك[3]
وانصُر على آل الصليـ	ـب وعابِدِيه اليومَ آلكْ[4]
لا يَغْلِبَنَّ صَليبُهُم	ومحالهم غَدواً[5] مِحالكْ
جَرُّوا جموعَ بلادهم	والفيلَ كي يَسبُوا عِيالَك
عَمَدُوا حِمَاك بكيدهم	جَهْلاً وما رَقَبُوا جلالَك
إنْ كنتَ تاركهم وكعـ	ـبَتَنَا فأمْرٌ ما بدا لك

وقال أيضاً:

(١) في الأصل: ثغانة، وفي (م): ثفانة، والمثبت من السيرة النبوية ١/ ٥٠، وتفسير الطبري ٢٤/ ٦٤٠، وتاريخ ابن كثير ٣/ ١٤٥، وما بين حاصرتين من هذه المصادر.

(٢) أي: شدته، وقوله: شَعَف الجبال، أي: رؤوسها. الإملاء المختصر لأبي ذر الخشني ١/ ٨٨.

(٣) جاء في هامش الأصل: بكسر الحاء جمع حِلّة: المحل الذي ينزله، والقوم النازلون فيه، ويُروى: رحالك جمع رحل: المنزل، وجُمع تعظيماً للحرم، أو جعل كل موضع منهم رحلاً. اهـ منه.

(٤) هذا البيت لم يرد في المصادر، وأشار إلى ذلك السهيلي في الروض الأنف ١/ ٧٠.

(٥) جاء في هامش الأصل و(م): قوله: غدواً بالغين المعجمة بمعنى الغدو، أريد به تقريب الزمان، ويُروى: عدواً بالمهملة، أي: ظلماً. اهـ منه.

يـا رب لا أرْجُـو لـهـم سـواكـا يـا رب فـامْـنَـعْ عـنـهـمُ حـمـاكـا
إنَّ عـدوَّ الـبـيـت مَـن عـاداكـا امْـنَـعْـهـمُ أنْ يُـخـرِبُـوا فَـنَـاكـا[١]

ثم أرسل الحَلْقة وانطلَق هو ومَن معه إلى شَعَف الجبال ينتظرون ما أبرهةُ فاعلٌ بمكة إذا دخلها.

فلمَّا أصبح تهيَّأَ للدخول وعبَّى[٢] جيشَه وهيَّأ الفيل، فلمَّا وجَّهَوه إلى مكة أقبل نُفَيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه فأخذ بأُذُنِه فقال: ابرُك محمود وارجِع[٣] راشداً من حيث جئتَ، فإنَّك في بلد الله الحرام. ثم أرسلَ أُذنَه فبَرَك، أي: سقط، وخرج نُفَيل يشتَدُّ حتى أصعدَ في الجبل، وضربوا الفيلَ وأَوجَعُوه ليقوم فأبَى، ووجَّهوه راجعاً إلى اليمن فقام يُهرول، وإلى الشام ففعل مثل ذلك، فوجَّهوه إلى مكة فبرك، فسقوه الخمرَ ليذهب تمييزُه فلم يَنْجَع ذلك.

وقيل: إنَّ عبد المطلب هو الذي عَرَكَ أذنه وقال له ما ذُكر، وكان ذلك عند وادي مُحَسِّر، وأرسل الله تعالى طيراً من البحر قيل: سوداً، وقيل: خضراً، وقيل: بيضاً[٤]، مثل الخطاطيف، مع كلِّ طائر منها ثلاثةُ أحجارٍ يحملُها، حجرٌ في منقاره وحجران في رجليه، أمثال الحمَّص والعَدَس، لا تُصيب أحداً منهم إلا هلَك، ويُروَى أنَّه يُلقيها على رأس أحدهم فتخرجُ من دُبُره، ويتساقط لحمه، فخرجوا هاربين يبتدرون الطريقَ الذي منه جاؤوا، يسألون عن نُفَيل ليدلَّهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما نزل بهم:

أيـن الـمـفـرُّ والإلـه الـطـالـبُ والأشرمُ المغلوبُ ليس الغالبُ

وقال أيضاً:

---

(١) جاء في هامش الأصل: وفي رواية: قراكا. اهـ منه. وهي رواية الطبري في تفسيره ٢٤/٦٤١، وفي تاريخه ٢/١٣٤.

(٢) تعبية الجيش: تهيئته في مواضعه. القاموس (عبي).

(٣) في السيرة لابن هشام ١/٥٣، والروض الأنف ١/٧١: أو ارجع.

(٤) في الأصل: قيل سوداء، وقيل خضراء، وقيل بيضاء.

ألا حُيِّيتِ عنَّا يا رُدَيْنَا نَعِمْناكم عن الإصباح عَيْنا
رُدَيْنَةُ لو رأيتِ ولا تُرَيْه لدى جَنْب المُحصَّب ما رأينا
إذاً لعذرتِني وحَمدتِ أمري ولا تأسَي على ما فاتَ بَيْنا
فكل القوم يسألُ عن نُفَيل كأنَّ عليه للحُبْشان دَيْنا

وجعلوا يتساقطون بكلِّ طريقٍ، ويهلكون في كل مَنْهَل، وأُصيبَ أبرهةُ في جسده، وخرجُوا به معهم تسقُطُ [أنامله][1] أُنْمُلَةً أُنملةً، كلما سقطَت أُنْملةٌ تبِعَها منه مِدَّةٌ ثم دَمٌ وقيح[2]، حتى قدموا به صنعاء وهو مثلُ فَرْخِ الطائر، فما مات حتى انصدَعَ صدرُه عن قلبه.

وقد أشار إلى ذلك ابنُ الزِّبَعْرَى بقوله من أبيات يذكرُ فيها مكة:

سائِلْ أميرَ الحُبْشِ عنها[3] ما ترى ولسوف يُنبي الجاهلينَ عليمُها
ستُّون ألفاً لم يَؤوبوا أرضَهم بل لم يَعِشْ بعد الإياب سقيمُها

ولهم في ذلك شعرٌ كثير، ذكر ابنُ هشام جملةً منه في سِيَرِه[4]، وفيها: أنَّ الطيرَ لم تُصب كلَّهم[5]. وذَكر بعضُهم أنَّه لم ينجُ منهم غيرُ واحدٍ[6]، دخل على النجاشي فأخبَرَه الخبرَ والطيرُ على رأسه، فلمَّا فرَغَ ألقَى عليه الحجَرَ فخرَقَت البناء ونزلَت على رأسه فألحقَتْه بهم.

---

(١) ما بين حاصرتين من تاريخ الطبري ٢/ ١٣٦، وتفسيره ٢٤/ ٦٤٢، وتاريخ ابن كثير ٣/ ١٤٨.
(٢) المِدَّة: القيح، القاموس المحيط (مدّ)، وجاءت العبارة في سيرة ابن هشام ١/ ٥٤: مِدَّة تمثُّ قيحاً ودماً. قال أبو ذر الخشني في الإملاء المختصر ١/ ٩٠: تمث: تسيل، وقيل: ترشح.
(٣) في (م): عنا، والمثبت من الأصل، وهو الموافق لما في الديوان ص٥٠، والسيرة النبوية ١/ ٥٧.
(٤) ١/ ٥٧ وما بعد.
(٥) السيرة النبوية ١/ ٥٣.
(٦) في هامش الأصل: ذكر في الكشاف أن هذا وزيره وكناه بأبي يكسوم، والله تعالى أعلم. اهـ. ينظر الكشاف ٤/ ٢٨٥.

وقيل: إنَّ سائسَ الفيل وقائدَه تخلَّفا في مكة فسَلِمَا، فعَن عائشةَ أنَّها قالت: أدركتُ قائدَ الفيل وسائسَه بمكة أعمَيين مُقعَدَين يَستطعِمان الناس[(١)].

وعن عكرمة: أنَّ مَن أصابَه الحجَرُ جَدَرَتْه، وهو أوَّل جدَري ظهَرَ، أي: بأرض العرب. فعن يعقوب بن عتبة أنَّه حُدِّث أنَّ أول ما رُئيت الحصبةُ والجدَري بأرض العرب ذلك العام، وأنَّه أول ما رُئي بها مرائرُ الشجر: الحرملُ والحنظلُ والعشر ذلك العام أيضاً[(٢)].

ويُرَوى أنَّ عبد المطلب لَمَّا ذهب إلى شَعَف الجبال بمن معه بقي ينتظر ما يَفعلُ القوم وما يُفعَل بهم، فلمَّا أصبح بعَثَ أحدَ أولاده على فَرَس له سريعٍ ينظرُ ما لقوا، فذهب فإذا القومُ مُشدَّخون[(٣)] جميعاً فرجع رافعاً رأسه كاشفاً عن فخذه، فلمَّا رأى ذلك أبوه قال: ألا إنَّ ابني أفرسُ العرب، وما كشف عن عورته إلا بشيراً أو نذيراً. فلمَّا دنا من ناديهم قالوا: ما وراءك؟ قال: هلكوا جميعاً. فخرج عبد المطلب وأصحابُه إليهم فأخذوا أموالهم وقال عبد المطلب:

أنتَ منعتَ الحُبْشَ والأفيالا
وقد رَعَوا بمكةَ الأجْبالا
وقد خَشِينا منهم القتالا
وكلَّ أمرٍ منهم مِعْضالا
شكراً وحَمْداً لك ذا الجلالا[(٤)]

هذا ومن أراد استيفاءَ القصة على أتمّ مما ذكر فعليه بمطوَّلات كُتب السِّيَر.

---

(١) أخرجه ابن اسحاق في السير والمغازي ص٦٥، والبزار (١٧٦ - كشف)، وهو في سيرة ابن هشام ١/ ٥٧.
(٢) السيرة النبوية ١/ ٥٤.
(٣) في الأصل و(م): مشدخين، والمثبت من المصادر، على ما يأتي.
(٤) قطعة من خبر طويل في قصة الفيل أخرجها أبو نعيم في دلائل النبوة (٨٦) عن عثمان بن المغيرة، وهي في النكت والعيون ٦/ ٣٤٢، والقرطبي ٢٢/ ٤٨٩، وجاء في الدلائل: الجيش، بدل: الحبش.

وقرأ السلمي: «ألم ترْ» بسكون الراء[1] جدًّا في إظهار أثر الجازم؛ لأنَّ جَزْمه بحذف آخره، فإسكانُ ما قبل الآخر للاجتهاد في إظهار أثر الجازم، قيل: والسرُّ فيه هنا الإسراعُ إلى ذكر ما يهمُّ من الدلالة على أمر الألوهية والنبوَّة. أو الإشارة إلى الحثِّ في الإسراع بالرؤية إيماءً إلى أنَّ أمرَهم على كثرتهم كان كلَمْح البصر، مَن لم يُسارع إلى رؤيته لم يُدركْه حقَّ إدراكه.

وتُعقِّبَ هذا بأنَّ تقليل البُنْيَة يدلُّ على قلَّة المعنى - وهو الرؤية - لا على قلَّة زمانه.

وقيل: لعلَّ السرَّ فيه الرمزُ من أول الأمر إلى كثرة الحذف في أولئك القوم. فتدبر.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢﴾ إلخ بيانٌ إجماليٌّ لِمَا فعل الله تعالى بهم، والهمزةُ للتقرير كما سبَقَ، ولذلك عطَفَ على الجملة الاستفهامية ما بعدها، كأنَّه قيل: قد جعل كيدَهم في تعطيل الكعبة وتخريبها وصَرْفِ شَرَفِ أهلها لهم في تضييع وإبطال بأنْ دمَّرهم أشنَعَ تدمير.

وأصل التضليل مِن ضلَّ عنه: إذا ضاع، فاستُعير هنا للإبطال، ومنه قيل لامرئ القيس: الضِّلِّيل؛ لأنَّه ضلَّل مُلكَ أبيه وضيَّعه.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣﴾ أي: جماعات. جمع إبَّالة بكسر الهمزة وتشديد الباء الموحَّدة. وحكى الفراء: إِبَالة مخفَّفاً، وهي حِزْمةُ الحطب الكبيرة، شُبِّهت بها الجماعة من الطير في تضامِّها، وتستعمل أيضاً في غيرها، ومنه قوله:

كادَتْ تُهَدُّ من الأصوات راحلتي إذ سالتِ الأرض بالجُرْد الأبابيلِ[2]

وقيل: واحدُه إبَّوْل مثل عجَّوْل. وقيل: إبِّيل مثل سِكِّين. وقيل: إبَّال.

وقال أبو عبيدة والفراء: لا واحدَ له من لفظه[3]. كعَبَاديد: الفِرَق من الناس الذاهبون في كل وَجْه، والشَّماطِيْط: القطع المتفرِّقة. وجاءت هذه الطير على ما روي عن جمع من جهة البحر، ولم تكن نجديةً ولا تهاميةً ولا حجازيةً. وزعم

(١) المحتسب ٢/ ٣٧٣، والبحر المحيط ٨/ ٥١٢.
(٢) البيت لمعبد الخزاعي، وسلف ٥/ ١٣٤.
(٣) مجاز القرآن ٢/ ٣١٢، ومعاني القرآن للفراء ٣/ ٢٩٢.

بعضٌ أنَّ حمام الحرم من نسلها، ولا يصحُّ ذلك، ومثله ما نقل عن «حياة الحيوان» من أنَّها تُعشِّشُ وتفرِّخُ بين السماء والأرض[١]. وقد تقدَّم الخلافُ في لونها.

وعن عكرمة: كأنَّ وجوهها مثلُ وجوه السباع، لم تُرَ قبلَ ذلك ولا بعدهُ.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ﴾ صفة أخرى لـ «طير». وعبَّر بالمضارع لحكاية الحالِ واستحضارِ تلك الصورة البديعة.

وقرأ أبو حنيفة وابن[٢] يعمر وعيسى وطلحة في رواية: «يَرْمِيهم» بالياء التحتية[٣]. والضميرُ المستتر للطير أيضاً، والتذكيرُ لأنَّه اسمُ جمع، وهو على ما حكى الخفاجي: لازمُ التذكير، فتأنيثُه لتأويله بالجماعة[٤]. وقيل: يجوزُ الأمران، وهو ظاهرُ كلام أبي حيان[٥].

وقيل: الضميرُ عائدٌ على «ربك». وليس بذاك.

ونسبة القراءة المذكورة لأبي حنيفة رضي الله عنه حكاها في «البحر»، وعن صاحب «النشر» أنَّه رضي الله عنه لا قراءةَ له، وأنَّ القراءات المنسوبة له موضوعة[٦].

﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ صفة «حجارة» أي: كائنةً من طينٍ متحجِّرٍ، معرَّب: سَنْك كِل.

وقيل: هو عربيٌ من السِّجل بالكسر[٧]، وهو الدلو الكبير[٨]. ومعنى كونِ الحجارة من الدلو أنَّها متتابعةٌ كثيرةٌ، كالماء الذي يُصَبُّ من الدلو، ففيه استعارةٌ مكنية وتخييلية.

---

(١) حياة الحيوان ١/ ١٧.
(٢) في الأصل و(م): وأبو. والمثبت هو الصواب.
(٣) القراءات الشاذة ص١٨٠، والبحر المحيط ٨/ ٥١٢.
(٤) حاشية الشهاب ٨/ ٣٩٩.
(٥) البحر المحيط ٨/ ٥١٢.
(٦) النشر ١/ ١٦، وحاشية الشهاب ٨/ ٣٩٩.
(٧) وضبطها صاحب المصباح المنير (السجل) بوزن: فَلْس. وكذا ضبطت ضبط قلم في أكثر المعاجم.
(٨) في (م): الكبيرة.

وقيل: من الإسجال بمعنى الإرسال، والمعنى: مِن مثل شيءٍ مرسَل.

و«مِن» في جميع ذلك ابتدائية.

وقيل: من السِّجِلّ وهو الكتاب، أُخِذَ من السجِّين، وجُعِل علماً للديوان الذي كتب فيه عذاب الكفار، والمعنى: من جملة العذاب المكتوب المدوَّن، فـ «مِن» تبعيضية.

واختلف في حجم تلك الطير، وكذا في حجم تلك الحجارة، فمرَّ[١] أنَّها مثل الخطاطيف، وأنَّ الحجارة أمثال الحِمَّص والعدس، وأخرج أبو نعيم عن نوفل بن معاوية الدُّئلي[٢] أنَّه قال: رأيتُ الحصَى التي رُمي بها أصحابُ الفيل، حصًى مثل الحمص وأكبر من العدس، حُمْرٌ مُخَتَّمةٌ[٣] كأنَّها جَزْع ظَفار[٤]. وأخرج أبو نعيم في «الدلائل» عن ابن عباس أنَّه قال: حجارةٌ مثل البندق. وفي رواية ابن مردويه عنه: مثل بَعْر الغنم[٥].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن عبيد بن عمير أنَّه قال في الآية: هي طيرٌ خرجَت من قبلة البحر، كأنَّها رجالُ السِّنْد، معها حجارةٌ أمثال الإبل البوارك وأصغرُها مثلُ رؤوس الرجال، لا تريد أحداً منهم إلا أصابَتْه، ولا أصابَته إلا قتلَته[٦].

---

(١) في (م): فمن، وهو تصحيف.

(٢) في الأصل و(م): نوفل بن أبي معاوية الديلمي. وفي الدر المنثور ٦/ ٣٩٦: نوفل بن معاوية الديلمي. والمثبت من الدلائل (٨٨)، والإصابة لابن حجر ١٠/ ١٩٥. والدُّئلي: بضم الدال وكسر الهمزة، وفيها لغات أخر. ينظر توضيح المشتبه ٤/ ٦٣-٦٦.

(٣) كتب فوقها في الأصل: بالضم: السواد. وجاء في (م): بخُتْمَة، وفي هامشها: قوله بخُتْمة بالضم: السواد. اهـ منه.

(٤) دلائل النبوة (٨٨)، والدر المنثور ٦/ ٣٩٦ والكلام منه. والجَزْع: الخرز اليماني، وظَفَار: اسم مدينة لحِمير باليمن. النهاية (جزع) و(ظفر).

(٥) ذكر الأثرَين السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٣٩٥-٣٩٦.

(٦) عزاه محمد بن يوسف الصالحي الشامي في سبل الهدى والرشاد ١/ ٢٥٦ للفريابي وعبد بن حميد وابن أبي حاتم.

والمعوَّل عليه أنَّ الطير في الحجم كالخطاطيف، وأنَّ الحجارة منها ما هو كالحِمصة ودوينَها وفويقَها.

وروى ابن مردويه وأبو نعيم عن أبي صالح: أنَّه مكتوبٌ على الحجر اسمُ مَن رُمي به واسمُ أبيه، وأنَّه رأى ذلك عند أمِّ هانئ[1].

﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ كورَق زرْع وقَع فيه الأُكَال[2]، وهو أنْ يأكلَه الدودُ، أو أُكل حبُّه فبقي صِفراً منه. والكلامُ على هذا على حَذْف المضاف وإقامةِ المضاف إليه مقامَه، أو على الإسناد المجازي، والتشبيهُ بذلك لذهاب أرواحهم وبقاء أجسادِهم، أو لأنَّ الحجَرَ بحرارته يحرقُ أجوافَهم.

وذهب غيرُ واحدٍ إلى أنَّ المعنى: كتِبْنٍ أكَلَتْه الدوابُّ وراثَتْه، والمرادُ كَرَوْثٍ، إلا أنَّه لم يُذكَر بهذا اللفظ لهجنته، فجاء على الآداب القرآنية، فشُبِّه تقطُّعُ أوصالهم بتفرُّق أجزاء الروث، ففيه إظهارُ تشويهِ حالهم.

وقيل: المعنى: كتِبْنٍ تأكلُه الدوابُّ وتروثُه، والمرادُ جعلُهم في حكم التِّبْن الذي لا يُمنع عنه الدوابُّ، أي: مبتذَلين ضائعين لا يلتفِتُ إليهم أحدٌ، ولا يجمَعُهم ولا يدفنُهم، كتبنٍ في الصحراء تفعلُ به الدوابُّ ما شاءت لعدم حافظٍ له، إلا أنَّه وضع «مأكول» موضع: أكَلَته الدوابُّ، لحكاية الماضي في صورة الحال. وهو كما ترى.

وكأنَّه لِمَا أنَّ مجيئَهم لهدم الكعبة ناسَبَ إهلاكهم بالحجارة، ولِمَا أنَّ الذي أثار غضبَهم عَذِرة الكِنانيّ شبَّهَهُم فيما فعل سبحانه بهم على القول الأخير بالروث، أو لِمَا أنَّ الذي أثاره احتراقُها بما حملَته الريحُ من نار العرب ـ على ماسمعْتَ ـ شبَّهَهُم عز وجل فيما فعل جل شأنه بهم بعصفٍ أُكِلَ حبُّه على ما أشرنا إليه أخيراً.

---

(١) الدر المنثور ٦/ ٣٩٦.

(٢) بالضم والكسر كغُراب وكتاب، وهو التآكل. حاشية الشهاب ٨/ ٣٩٩.

وقرأ أبو الدرداء فيما نقل ابن خالويه: «مَأَكُول» بفتح الهمزة إتْباعاً لحركة الميم[1]، وهو شاذٌّ، وهذا كما أتبعوا في قولهم[2]: «مَحَموم» بفتح الحاء لحركة الميم. والله تعالى أعلم.

(١) القراءات الشاذة ص ١٨٠، والبحر ٨/ ٥١٢.
(٢) قوله: في قولهم، ليس في الأصل.